-1-
رحلة داخل الإسلام

«أفعـال أسامة بن لادن وحـزب الله وحماس والطالبان، حتى إن أدت إلى قتل النساء والأطفـال، مبررة وجائـزة تماما في الإسلام». هـذه الكلمات المرعبـة، التي تنذر بمزيد مـن القتل والعنف، نطق بهـا دون مبالاة أكثر الشبان رقة ولطفـا في أحد الأيام المشمسة التـي صفت سماؤها في الهند. الخطيـب كان مضيفنا، إعجاز قاسمـي، الذي رافقنا أنا وصحبـي، بوجهه البسام، ونظارته السميكة، ولحيته المشذبة، وهو يرتدي لباس المسلمين التقليدي في جنوب آسيا (سروال قطني أبيض، ورداء طويل، وطاقية بيضاء صغيرة) إلى محطة مهمة في رحلتنا داخل الإسلام: ديوباند، المدرسة الدينية البارزة في إسلام جنوب آسيا. وكان إعجاز واحدا من كبار منظريها.

أعطت ديوباند اسمها إلى مذهب فكري داخل الإسلام. فعلى شاكلة الحركة الوهابية المعروفـة في العالم العربي، يمثل المذهب حركة قوية للدفاع عن التراث الإسلامي والهوية الإسلاميـة والحفاظ عليهما ونشرهما. ومثل حركة الإخوان المسلمين في الشرق الأوسط، تعـد ديوبانـد منارة للهوية الإسلاميـة للعديد من المسلمين. أما للكثيريـن في الغرب فإن «العدو» اللدود هو ديوباند بعينها، إضافة إلى الناطقين باسمها، مثل إعجاز قاسمي.

حـين اقتربنا من وجهتنـا المقصودة، بدا المشهد موحشا؛ فقد زالت الشاخصات من الطريـق، وغابـت محطات الوقود، واختفت حتـى أكشاك شرب الشـاي. راودتني الآمال الكبـار بتعـرف حال ومزاجية المسلمين والجـو الإسلامي العام في عصـر العولمة، عندما بـدأت رحلتـي على هذا الطريق المقفر البعيد عن دلهي مسافـة عدة ساعات. فلو أخذونا رهائـن أو قطعوا أوصالنا إربا إربا، «لما عرف أحـد ذلك قبل مرور أسبوعين على الأقل»، كما قلت هامسا لفريقي المكون من شاب وشابة أمريكيين.

كانـت هذه محاولة هازلة لتخفيف حدة الاندفاع الجـريء لدى هيلي ولدت وفرانكي مارتـن (عضـوي الفريق) نحو المغامرة بجسـارة وحماسة الشباب. ونظـرا لأنني ضيف

«شرف»، وقلت إن هيلي مثل «ابنتي»، وفرانكي مثل «ابني»، فقد تيقنت أننا في مأمن. ومع أن كلا من الطالبين قد قرأ تصوير اي . ام. فورستر الكلاسيكي للإسلام في روايته «ممر إلى الهند»، إلا أنه شاهد أيضا «انديانا جونز ومعبد الهلاك». ورافقني في هذه الرحلة وهو على ثقة بأن أستاذه سيعيده إلى الوطن سالما غانما. وعلى شاكلة البروفسور جونز، وجب علي إبعاد الأذى عنهما وتمكينهما من المشاركة الكاملة في الدراسة.

لم يزر أي منهما من قبل العالم الإسلامي الذي يعاني الآن مشكلات عديدة واضطرابات كثيرة. لم يردعه ذلك، ولا مخاوف الأسرة وقلق الأصدقاء، بل قطع دراسته الأكاديمية، ودفع تكاليف الرحلة، ووضع ثقته فيّ. لا يمكن لأستاذ أن يتوقع مكافأة أعظم، وآمل أن يقدر القارئ السبب الذي جعلهما جزءا مهما من المشروع في نظري. وأعرف أن المشاعر بيننا متبادلة[1].

خلال حديثنا في السيارة، بدا إعجاز، الذي كان يجلس في المقعد الأمامي ويلتفت نحوي، أنه يتجاهل جميع الأسئلة التي تطرحها هيلي ويوجه الحديث إلي. وباعتباري مسلما، أعرف أن ذلك يعد سلوكا متزمتا منه. فقد كان يحترم وضع هيلي كامرأة من خلال عدم النظر إليها مباشرة. فذلك يعد برأيه انتهاكا لحشمتها. وكان سيلاحظ بتقدير وإعجاب أنها ترتدي زيا إسلاميا حصلت عليه من باكستان: رداء فضفاضا وحجابا أبيض تغطي به رأسها في المسجد كما جرت العادة.

ناولتني سرا ورقة كتبت فيها على عجل جملة تعبر عن سخطها الواضح: «لن ينظر إلي». وعلى الرغم من أنني استطعت رؤية أنها تتبع، كمراقبة متلقية للثقافة والتقاليد، تراث الرحالات الغربيات اللاتي سافرن إلى العالم الإسلامي في القرن العشرين، إلا أن نفاد الصبر الذي يميز الأمريكيين لم يكن غائبا عنها. أشرت إليها بالهدوء. إذ لم يكن الزمان والمكان مناسبين لتصعيد حدة صراع بين الثقافات.

دار أحد الأسئلة التي طرحتها حول هل يبرر القرآن الهجوم على الأبرياء. كنا نتحدث عن الجهاد، الكلمة التي أصبحت ترتبط في الغرب بالعمل العسكري العدواني، مع أنها في العربية أتت من الفعل /جاهد/ بمعنى /جد وسعى/. وبرأي النبي، كان للتعبير مدلولان اثنان: «الجهاد الأكبر»، أي الجد والسعي والكفاح للارتقاء بالنفس روحيا وأخلاقيا،

وهـو أمر لا علاقة له بالعنـف، فضلا على التعرض للنساء والأطفـال الأبرياء؛ و«الجهاد الأصغـر»، أي الدفاع عن العائلة والأمة أمام الهجـوم. في هذه الحالة أيضا، ليس ثمة أي ذكر للعدوان. ووفقا لإعجاز قاسمي، فإن الهجمات التي يشنها المسلمون على الأمريكيين والإسرائيليـين (حيـث يعد أمريكا وإسرائيل كيانا واحدا) هـي دفاع مشروع عن النفس؛ إضافـة إلى ذلك، لا تعـد النساء والأطفال الأمريكيـون والإسرائيليون أبرياء بالضرورة، كمـا يتضح من دعمهم للفظائع المرتكبة بحـق المسلمين في أفغانستان والعراق وفلسطين. بـل يعتقـد أن الأمريكان بدعم مـن الإسرائيليين، يشجعون أعمـال التعذيب الوحشية في أبو غريـب وغوانتانامو. ونظرا لأنهم قادرون على وقف هذه الجرائم لكنهم يمتنعون عن ذلك، فهمنظريامذنبون بارتكاب الفظائع ذاتها.

قدم إعجاز هذه الحجج في كتاب أصدره مؤخرا ولقي رواجا كبيرا: «الجهاد والإرهاب» (باللغة الأوردية)[2]. وفي طبعته السابعة، عبر الكتاب عن غضب المسلمين على تعرضهم للهجوم والقتل في شتى أرجاء العالم. فما يدعى بالعنف الإسلامي، كما كتب إعجاز، ليس سـوى دفاع مبرر عن النفس أمام «البربرية الأمريكيـة والهمجية الإسرائيلية». لقد شعر إعجـاز أن أسلوبه في الحياة، وثقافتـه، ودينه، عرضة للهجوم. وهؤلاء «البرابرة والهمج» وصلـوا إلى حـد الانقضاض على نبـي الإسلام ذاتـه «عليه الصلاة والسـلام». ولذلك، فـإن من واجب كل مسلم الانضمام إلى الجهـاد، أي الدفاع عن دين الإسلام والذب عن «إخوانـه» المسلمين في أرجاء العالم كافة. وأبلغنا وقد تملكه الحماس الآن أن المسلمين لن يتخلـوا عن دينهم أبدا، وسوف يـذودون عن حياضه حتى آخر رمـق، ويهزمون الولايات المتحـدة في حربهـا على الإسلام. في نظـر إعجاز، المسلمون الحقيقيـون هم الطالبان - وأسامـة بن لادن الذي يضيف إلى اسمه لقب التوقـير الشيخ. هذا الموقف، برأيي، سوف يعقد الأمور لمسلمين مثلي، يرغبون في ترويج تعاليم الإسلام الأصلية القائمة على الرحمة والإحسان والسلام.

وفي سبيـل معرفة هـل يتساهل مع آراء إسلامية أكثر اعتدالا، سألته عن رأيه بمحمد علي جناح، مؤسس باكستان والزعيم الذي نادى بحقوق المرأة، وحقوق الإنسان، واحترام القانـون. ولدهشتـي لم يحـاول إدانة محمد علي جنـاح بوصفه علمانيا لكـن عده زعيما

سياسيا عظيما، وإن لم يكن قائدا إسلاميا كبيرا. وهذا يعني أنه لا يمثل بالضرورة قدوة للمسلمين ولذلك لا توجد صلة وثيقة تجمعه بالإسلام. من المؤكد أن بالإمكان الاعتراف بأهمية ومرجعية محمد علي جناح لأسباب تتسم بضيق الأفق. فمن الملامح التعويضية بالنسبة لإعجاز أن أحد أقرب مؤيدي جناح كان شخصية دينية شهيرة تتبع مدرسة ديوباند. فالصلة بديوباند حجة دامغة لا تدحض، بل إن اسم عائلة إعجاز - قاسمي - مستمد من اسم مولانا قاسم نانوتوي، الأب المؤسس للمذهب / المدرسة.

حين سعيت لاستطلاع آرائه عن الجانب الروحاني/الصوفي من الإسلام، غدا إعجاز حريصا وحذرا. ذكرت له معين الدين تشستي، المتصوف الشهير (1141.1230م)، الذي روج صيغة تراحمية للإسلام ودفن في أجمر في قلب مقاطعة راجستان الريفية الهندية. قال إعجاز إنه لم يزر أجمر قط، ونأى ببصره صامتا، تاركا الأمر عند هذا الحد. فلربما مثلت أجمر سبيلا وعرا ومظلما لم يرغب في استكشافه.

فيما يخص موضوع التقانة، كانت إجاباته مفاجئة. فبدلا من إدانة التقانة الحديثة بوصفها امتدادا للغرب (كما حسبت)، أخرج متباهيا بطاقة تحمل لقب «محرر موقع الويب» لديوباند. وبصفته هذه، كما شرح، تمكن من مخاطبة وتوجيه وتعليم آلاف الشباب المسلم في مختلف أرجاء جنوب آسيا. ولم يجد أي تناقض في استخدام التقانة الغربية لنشر وبث الرسالة الإسلامية.

وسمت هذه وغيرها من ملاحظات إعجاز قاسمي ضخامة واتساع الهوة الفاصلة بين الولايات المتحدة والعالم الإسلامي. وعبر تعليق فرانكي عن ذلك بشكل بسيط ودقيق: «حسبت أن الأمور سيئة حين كنت في واشنطن، لكنها في الحقيقة أشد سوءا». في ذلك اليوم، واجه هذان الشابان الأمريكيان أعظم تحد يجبه وطنهما في القرن الحادي والعشرين: الأزمة مع العالم الإسلامي.

رؤية إعجاز قاسمي للعولمة

كان إعجاز قاسمي في الحقيقة يعلق على العولمة دون استخدام الكلمة ولو مرة واحدة. ففي ذهنه، ترادفت العولمة مع طمع وجشع الشركات المتعددة الجنسية التي استغلت الموارد الطبيعية للبلدان الإسلامية، والغضب الذي نفست عنه الولايات المتحدة من خلال قصف

أفغانستـان ثم العراق بعد الحادي عشر من سبتمـبر 2001، والجهل الذي أبدته وسائل الإعلام الغربية بدين إعجاز قاسمي وثقافته وتقاليده وتراثه. وربطها أيضا بثقافة الجنس والعنـف غير المبررة، التي تمجدها هوليود. وأضـاف إن الأمريكان لا يشكلون سوى نسبة 6% من سكان العالم ومع ذلك يستهلكون 60% من موارده الطبيعية، وهي حقيقة أثبتها انتشار وباء البدانة في أمريكا وتبذير وإسراف حتى الطبقة الوسطى.

ساوى إعجاز دون قصد بين أفعال وتصرفات الولايات المتحدة – ومن ثم قوى العولمة – وبين «السموم الثلاثة» الذي حذر بوذا من أنها يمكن أن تدمر الأفراد وحتى المجتمعات: الجشع والغضب والجهل. ففي العقيدة الإسلامية، يمكن «معالجة» هذه الرذائل بفضائل العـدل والإحسان والعلـم. فترياق الجشع هو العدل؛ ولا يمكـن السيطرة على الغضب إلا بالرحمة والإحسان؛ ولا يقضي على الجهل إلا العلم.

أسهبت في تقديم حجج إعجاز قاسمي الحماسية في مستهل هذه المناقشة لأنها تجسد الأزمـة التي أحدثتهـا العولمة في العالم الإسلامي، وهذه قضيـة جوهرية يجب أن يدركها العقـل الغربـي. فعلى العكس مـن مفهومي العدل والإحسـان، تظهر شاشـات التلفزيون للمسلمـين أن بمقدور كبار المديرين التنفيذيين للشـركات المتعددة الجنسية جمع ثروات طائلـة بينما يتضور باقي البشر جوعـا في بلدانهم وفي البلدان الأخرى، ولا مانع من ذبح آلاف الأبريـاء في أفغانستـان والعراق، وتعرض الفلسطينيين في قلب العـالم الإسلامي للقمع والاضطهاد دون أن يأملوا بتلقي أي عون من الغرب، وخضوع مئات ملايين المسلمين لحكومـات قمعية دون أمل بتحقيق العدالة. يشعر المسلمون أن صوتهم غائب في مثل هذه الظـروف ولم يدعهم أحـد للمشاركة في العديد من أحداث العـالم التي تعنيهم. وما زاد الطـين بلة أن الثقافة الأمريكيـة غزت مجتمعهم عبر وسائل الإعـلام وطوفان المنتجات الغربيـة. أما ردة فعل المسلمـين على ذلك كله فقد تلونت بالحماسـ والغضب. ومن أجل مغالبـة ما عدّوه عالما خارجا عن السيطـرة والحفاظ على شعورهم بالأمن والأمان، فهم يعودون إلى جذورهم ويتشبثون بها.

شجعـت هذه الظـروف الساحقة بعض المجتمعات الإسلامية علـى التمسك بموقف دفاعي ومتشدد ومتوتر تجاه الغرب. فهذه النظرة التي نشرها زعماء وقادة يتمتعون بتأثير نافـذ في هذه المجتمعات، تهدد وتربك الخطاب الإنساني في العالم، لأنها تثمن اللامبالاة

والقسوة، وتسمح لرجال مثل بن لادن بالتحول إلى أبطال شعبيين، وتعارض جوهر أفكار العدل والإحسان والحكمة التي تشترك فيها جميع التقاليد التراثية الدينية.

ومنذ أن شنت «الحرب على الإرهاب»، عمت الفوضى المجتمعات المحلية في العراق وأفغانستان، وهذا أتاح للنزاعات الدينية والقبلية والمذهبية والطائفية القديمة الظهور على السطح مرة أخرى. وفي غياب الهدوء والأمن، بدأ الناس ينظرون إلى ديكتاتورية صدام حسين، مثلا، بنوع من الحنين إلى الماضي. المواطنون يعيشون في حالة دائمة من عدم اليقين: لا يعرفون أن بيوتهم ستكون آمنة، وأنهم سيصلون سالمين إلى مكان عملهم، وأن أولادهم سيعودون إلى المنزل من المدرسة. والأسوأ أن القتلة مجهولون وطلقاء. بعض الناس يوجهون اللوم إلى الجنود الأمريكيين، وبعضهم الآخر يشيرون بإصبع الاتهام إلى المتمردين الذين يلفهم الغموض والسرية، وغيرهم يضعون المسؤولية على عاتق عناصر من قوات الأمن العراقية ذاتها. الحرب على الإرهاب انحدرت إلى درك حرب يشنها الكل على الكل. رأى الفيلسوف الإنكليزي توماس هوبز، وكذلك عدّ الفقهاء المسلمون – تاريخيا – الطغيان مفضلا على الفوضى، وسمعنا إعادة توكيد هذا المبدأ في أحاديثنا مع المسلمين في مختلف أرجاء العالم الإسلامي. فقبل ألف سنة، ذكر الإمام مالك (مؤسس أحد المذاهب الرئيسة الأربعة في الإسلام) أن ساعة من الفوضى أسوأ من ستين سنة من الطغيان[3].

وفي حين أنه لا يوجد من ينكر الفوائد العظيمة للعولمة – سياسات التنمية الاقتصادية، مثل قروض التمويل الصغيرة، انتشلت الملايين من وهدة الفقر في الهند وبنغلادش، والتقانات الجديدة أتاحت التوزيع السريع لمعونات الإغاثة والمساعدات الطبية لضحايا الزلزال الذي ضرب باكستان والناجين من إعصار تسونامي في إندونيسيا. إلا أن العديد من سكان العالم يربطون العولمة بالقسوة وعدم الرحمة. وكان بمقدور الإحسان بين البشر أن يمنع الفظائع الوحشية التي ارتكبت في السنوات القليلة الماضية، مثل قتل عائلة بأكملها في بلدة حديثة العراقية على يد الجنود الأمريكيين، أو قطع رأس نيك بيرغ في العراق ودانييل بيرل في باكستان. ومنذ أن بدأت الحرب على الإرهاب، لم يستطع الطرفان استعادة شعورهما بالتوازن والرحمة والإحسان والحكمة، وهي سمات كانت ذات مرة تحظى بالتقدير والإجلال.

كل مناقشة أجريناها طوال رحلتنا أدت بشكل مباشر أو غير مباشر إلى الأحداث التي وقعت هناك في أمريكا في الحادي عشر من سبتمبر 2001، وإلى العواطف التي تولدت عن ذلك اليوم. لقد أصبحت الولايات المتحدة والعالم الإسلامي مرتبطين بعلاقة عدائية لا يمكن فصم عراها، وبالتالي فإن كل فعل يقوم به طرف سوف يستدعي رد فعل من الآخر. إذ غير الحادي عشر من سبتمبر العالمين وتحداهما بطرق لم تكن متوقعة.

الحادي عشر من سبتمبر 2001

في الحادي عشر من سبتمبر 2001، وفي التاسعة إلا بضع دقائق صباحا، دخلت أحد صفوف الجامعة الأمريكية بواشنطن دي. سي، بعد أن انضممت إلى الهيئة التدريسية قبل بضعة أيام. كنت على وشك إلقاء محاضرتي عن الإسلام أمام طلاب السنة الثانية، وهو موضوع بدا آنذاك بعيدا عن اهتمام الشبان الأمريكيين الذين جلسوا أمامي. وتساءلت هل أستطيع أن أجذب انتباههم.

ما كدت أبدأ شرح استحالة فهم الإسلام خارج الإطار المعقد للاهوت وعلم الاجتماع والشؤون الدولية، وأن قصته تتمركز على حضارة تقليدية كبرى تواجه قوى العولمة، حتى غادر طالبان قاعة الصف فجأة، ليعودا بعد بضع دقائق وقد بدت عليهما أمارات الذهول والاهتياج. وانتشرت موجة من الهمهمات الهامسة في الصف. أول ما خطر ببالي أن «شيئا رهيبا قد حدث». خرج عدد آخر من الطلاب من الصف حاملين هواتفهم النقالة. همس أحد الطلاب قائلا إن مسلمين اختطفوا طائرة وصدموا بها مبنى في نيويورك. وقال طالب شاحب الوجه إن طائرة مكتظة بالركاب صدمت مبنى البنتاغون أيضا، على بعد بضعة أميال من حرم جامعتنا. بدا الأمر وكأنه فيلم خيالي من إنتاج هوليود.

حينما حاولت متابعة مناقشتي للعلاقات الأمريكية الإسلامية، لم أدرك أن أشد اللحظات إثارة في التاريخ الأمريكي في القرن الحادي والعشرين تحدث قرب أسوار جامعتنا وعلى بعد بضع مئات من الأميال إلى الشمال. لم يتطلب تبدي ضخامة الحدث الجلل في الصباح وقتا طويلا. فمهما حدث وبغض النظر عن المسؤولين، سوف تلطخ المآسي في نيويورك وواشنطن وبنسلفانيا سمعة المسلمين. ولن يعود العالم كما كان أبدا.

ما جرى هو فشل ذريع للمسلمين. فإضافة إلى أن المنفذين من المسلمين، فقد ارتكبوا عملا محرما في الإسلام، هو قتل الأبرياء. وعلى مستوى أعمق، فشل الزعماء المسلمون في التكيف مع قواعد العالم الجديد، وأخفق العلماء المسلمون في نشر وبث حكمتهم في مجتمعاتهم. وعلى القدر ذاته من الأهمية، أهمل العالم فهم الإسلام واستيعاب واحد من أكبر أديانه وأوسعها انتشارا.

قبل الوصول إلى واشنطن، قضيت سنوات عديدة أشرح وأفسر تعقيدات الإسلام أمام تشكيلات متنوعة من الناس في منتديات مختلفة. في بعض الأحيان، تحدثت أمام جمهور من المسلمين لأساعدهم على فهم عالمهم. وبوصفي شخصا عاش وعمل في البلدان الإسلامية والغربية، استشعرت بأن عاصفة عنيفة تتجمع نذرها في الأفق، وحيث وصلت في الحادي عشر من سبتمبر، أصبحت الحاجة إلى الفهم أكثر إلحاحا عن قبل.

لكن حسبت أن ردة فعل الأمريكيين سوف تتميز بالحس المنطقي السليم، والتراحم والرحمة، والحكمة والحصافة. فمثل هذا الرد لن يظهر القوة الأخلاقية والقدرة المعنوية فقط، بل سيضع الكوكب الأرضي على مسار سليم وسديد ومفيد للمستقبل. ولم أظن أنه سيأتي بهذه السرعة ويكون مدفوعا بباعث الغضب الصرف.

وباعتباري باحثا مختصا أدرس الإسلام ومسلما يعيش في الولايات المتحدة، رأيت أنني أواجه أعظم تحد في حياتي. عقدت العزم على الاستفادة من تعليمي وثقافتي، وصداقاتي، وتجاربي وخبراتي في مختلف المجتمعات الإسلامية: لسوف أضاعف جهودي لمساعدة غير المسلمين والمسلمين على حد سواء على تقدير الجوانب والملامح الحقيقية للإسلام ومن ثم تكوين رابطة تجمع بينهم. فبغير هذا الفهم المشترك سوف يغرق العالم في الصراع ويغوص في غيهبه.

ومنذ ذلك الحين لم يمر يوم لم أقض فيه وقتا أتحدث عن الإسلام - في وسائل الإعلام، أو الحرم الجامعي، أو مع الزملاء المهتمين بحوار الأديان. ويعد هذا الكتاب، الذي هو نتاج لأبحاث ودراسات أجريت في تسعة بلدان إسلامية إضافة إلى الجاليات الإسلامية في الغرب، جزءا من ذلك المسعى. وهو يتناول ذلك اليوم المروع في سبتمبر، والأحداث التي أدت إليه، والتطورات اللاحقة عليه، ومضامينها ومقتضياته وتأثيراتها في

المستقبل القريب والبعيد. موضوعه الصدام بين الدول الغربية والإسلام - الذي يعد أكثر الديانات تعرضا لسوء الفهم والأفكار المغلوطة - في عصر بلغ فيه الاتصال المتبادل حدا مذهلا، حيث تفرز الأحداث في جزء من العالم تأثيرا فوريا تقريبا في الأجزاء الأخرى، وهذا يضع المجتمعات المتباعدة في اتصال مباشر. الكتاب في الجوهر محاولة لتحديد وتعريف المشكلات العالمية التي تواجهها المجتمعات، واقتراح حلول لها، وفوق كل شيء مناشدة الأقوياء والأغنياء والمترفين الانضمام إلى جهد أوسع للتوصل إلى فهم أفضل وصداقة أوثق بين المجتمعات المختلفة عبر الرحمة والإحسان والتعاطف والحكمة وضبط النفس.

حين تتصادم العوالم

ألقت الأحداث التي جرت خلال السنوات القليلة الماضية ظلا كئيبا مشؤوما على كوكبنا. فقد أطلقت ما دعاه الرئيس جورج بوش بـ"الحرب (العالمية) على الإرهاب". وهي حرب لم يشهد التاريخ لها مثيلا. فليس هناك عدو مرئي أو محدد، ولا تبدو لها نهاية في المستقبل المنظور. وهي لا تتصل فعلا بالديانات أو الحضارات، لكنها متورطة فيها. الإسلام لا يمثل القضية المركزية، لكن من المعتقد على نطاق واسع أنه مرتبط ارتباطا وثيقا بحالة العنف وانعدام الأمن والأمان المنتشرة في العالم. السبب ليس العولمة -التحولات التي تطرأ على التقانة والنقل والتطور الاقتصادي والاتصالات وممارسة السياسة الدولية - لكن نتيجة الحرب، تجتاح ضغوط التغيير المجتمعات التقليدية مثل المجتمعات الإسلامية. ولم تظهر في التاريخ من قبل مثل هذه الحاجة الملحة إلى تعريف تعابير غامضة ومصطلحات مراوغة مثل "الحرب" و"الدين"، أو ممارسة الحكمة والحصافة في العلاقات الإنسانية، أو تمييز الآراء الساذجة والأفكار السطحية (في وسائل الإعلام، ليست هذه سوى أحكام مسبقة ومتحيزة، لكنها تقبل على الفور بوصفها حقائق)، أو استهجان الوحشية والتنديد بعدم المبالاة لمعاناة وتباريح البشر.

هذه الحرب العالمية لا تدور حول نهاية الزمان، لكن رؤساء دول العالم - من المسلمين وغير المسلمين -يتصرفون وكأنهم ينجرفون بتهور لخوض معركة ارماجدون(*). وتأكد للكثيرين أن القيامة على الأبواب بسبب انتشار العنف والفوضى والظلم - وهي من

(*) المعركة النهائية الحاسمة التي ستخوضها قوى الخير وقوى الشر عند نهاية العالم (المترجم).

علامات اقتراب الساعة. وفي حين يتحدث المسيحيون من أتباع العقيدة الإنجيلية بحماس وحمية عن العودة الثانية للمسيح والمعركة النهائية بين الخير والشر (حيث يمثل المسلمون أعداء المسيح)، ينتظر معظم المسلمون الشيعة عودة الإمام المهدي المنتظر الذي سيقودهم في معركة مشابهة. ولإضافة مزيد من التعقيد على القضية، يعتقد المسلمون أن المسيح سيكون في صفهم في المعركة ضد الشر وسوف يكتب لهم النصر حتما. وهكذا، أصبحت سياسات الرئيس بوش، المعروفة باسم مبدأ بوش، المؤسسة على أفكار مثل "الضربة الاستباقية" و"تغيير النظام"، وبيانات الرئيس الإيراني أحمدي نجاد التي تدعو إلى محو إسرائيل، الخطوات المنطقية الأولى نحو تحقيق هذه النبوءة، أي المواجهة الحاسمة بين الخير والشر. لم تتبد من قبل مثل هذه الحاجة إلى تلك الألفاظ التي نادرا ما ذكرت، بل لم تذكر على الإطلاق: "الإحسان" و"التعاطف" و"المحبة".

مثل الحادي عشر من سبتمبر معلما مميزا للتصادم بين حضارتين: حضارة الغرب التي تقودها وتمثلها الولايات المتحدة، وتلك المكونة من المجتمعات الإسلامية وأتباع الإسلام كلهم. ووفقا لأطروحة صمويل هنتنغتون، يجسد هذا جزءا من صدام تاريخي مستمر بين الحضارة الغربية والحضارات اللاغربية، ثم اختزله المعلقون الأمريكيون إلى مواجهة بين الولايات المتحدة والإسلام. وكأنما أراد ناشر كتاب هنتنغتون إثبات هذه المقولة، حيث وضع على غلاف الطبعة الأولى رايتين متعارضتين: علم الولايات المتحدة بنجومه وخطوطه، وراية خضراء عليها هلال أبيض ونجمة بيضاء[4]. لكن الحقيقة أشد تعقيدا من ذلك.

تختلف الحضارتان إثنيا، وتضمان مجتمعات متباينة في خلفياتها التاريخية، وتجمعهما علاقة متوترة. كانت الولايات المتحدة، التي خرجت منتصرة بعد انهيار عدوها القديم الاتحاد السوفييتي، مستعدة نفسيا للوقوف في وجه تهديد عالمي آخر. استخدم الخطاب البلاغي التحريضي لبعض المسلمين، مثل أسامة بن لادن، وتفجير السفارتين الأمريكيتين في إفريقيا، والمدمرة "كول"، كذرائع تبريرية أولية لاستهداف العالم الإسلامي. وشعر المسلمون بالإحباط نتيجة عدد من المخاوف والمشاغل والهموم: العجز الأمريكي عن حل مشكلتي فلسطين وكشمير، والتخلي عن أفغانستان بعد أن

هلك العديد من سكانها في قتال الاتحاد السوفييتي، وتمركز الجنود الأمريكيين في بعض البلدان الإسلامية.

ومع ذلك، صدم ما حدث في الحادي عشر من سبتمبر وما نجم عنه من خراب ودمار وقتل وفوضى وارتباك الغالبية الساحقة من المسلمين، الذين تعاطفوا مع أحزان ومآسي الأمريكيين. ونظمت تجمعات عامة في القاهرة وطهران وإسلام أباد للصلاة من أجل الضحايا والتعبير عن الوقوف إلى جانبهم. لكن هذه النيات الحسنة لم تعمر طويلا. إذ تحول الحزن والتعاطف إلى غضب وحنق حين نفست الولايات المتحدة عن غضبها وانتقامها في أفغانستان ثم العراق. ومع استمرارها في مسعاها الأعمى لتحقيق الأهداف المراوغة، مثل الديمقراطية والأمن، انحدرت العلاقة بين العالمين إلى درك الصراع، واتسعت الشقة بينهما باطراد.

الولايات المتحدة التي عرفتها كانت مختلفة. فقبل عقدين من السنين عملت أستاذا زائرا في معهد الدراسات المتقدمة في برنستون، قادما للتو من تلال وجبال وزيرستان الوعرة (في باكستان)، التي يعتقد الآن أن أسامة بن لادن ربما يختبئ فيها. سحرتني البحيرات الهادئة، والغابات الخضراء، وممرات وحدائق المعهد، وبهرني زملائي من الأساتذة البارزين، وبعضهم من الفائزين بجائزة نوبل. اتسم الأمريكان الذين قابلتهم بالود والانفتاح ورحبوا بي أجمل ترحيب. ومع أنني أدركت أن هذا المجتمع لا يمثل المجتمع الأمريكي كله، إلا أنه ترك في نفسي انطباعا لا يزول عن كرم وحسن ضيافة الأمريكيين، واحترامهم للتعليم، وانفتاحهم على الأفكار الجديدة. وكانت الولايات المتحدة هي المكان الذي اخترته دون تردد لأعيش فيه في صيف عام 2000. ولهذا وجدت نفسي في واشنطن في الحادي عشر من سبتمبر 2001، عندما اقتحم الإسلام خشبة المسرح العالمي بتلك الطريقة المباشرة والدرامية التي يصعب محو آثارها.

كان الخاطفون التسعة عشر من المسلمين. لقد دمروا الرمز المالي للعولمة في نيويورك، وهاجموا أهم رمز عسكري في الولايات المتحدة. وقتلوا 2973 من المدنيين الأبرياء، إضافة إلى أربعة وعشرين من المفقودين الذين اعتبروا في عداد الأموات. أصيبت الولايات المتحدة، الرمز المجسد للعولمة في الفكر والممارسة، بضربة موجعة في الصميم.

ومثلت الهجمات المروعة أيضا ضربة ماحقة لقيم العدل والإحسان والعلم التي أعجبت بها في الحضارتين كلتيهما.

انجرفت الولايات المتحدة، القوة العظمى الوحيدة في العالم والقادرة على قيادة الطريق في مواجهة التحديات العالمية، مع مشاعر الغضب، وركزت طاقاتها ومواردها على طلب الثأر والانتقام. ومع تنامي مشاعر الغضب والإحباط لدى المسلمين أيضا، سمحت الحضارتان للكراهية والتحيز بالهيمنة على الفصل الجديد في كتاب العولمة. ومنذ الحادي عشر من سبتمبر، تجاهل الطرفان الأزمات العالمية الأخرى المحفوفة بالخطر، التي يستحيل العثور على حل لأي منها قبل أن يدخل عالم الإسلام في علاقة تشاركية يسودها الاحترام المتبادل مع بقية بلدان العالم.

لن يكون ذلك سهلا. إذ فاقم الحادي عشر من سبتمبر الانقسامات الفلسفية والتاريخية العميقة بين الغرب والعالم الإسلامي. فإدراك الإسلام بوصفه دينا يتناقض مع الغرب ومتخلفا عن ركبه يقع في صميم تعريف الغرب لذاته. فهو يعتقد أنه نجح في التوصل إلى تسوية توافقية ومتوازنة بين الدين والعقل، في حين فشل الإسلام في ذلك. وهذا التناقض بين الغرب (الذي يهيمن عليه الفكر العلماني والعقلاني كما هو مفترض) والمجتمع الإسلامي التقليدي هو الذي يمثل أساس الاحتكاك وسوء الفهم. فهل يجب الافتراض إذن، كما يزعم بعض النقاد، أن الإسلام يتناقض مع العقل؟

استطاع الدين والعقل في الإسلام، خلال ما تدعوه أوروبا بالعصور الوسطى، التعايش معا في تناغم مريح وتوائم صريح. وقدم الفقهاء والعلماء الحجة على أن الدين يعزز ويغني ويزيد فهم العالم الدنيوي والمادي، فيتعمق الإيمان ذاته. ونتيجة لذلك، أعيد تفسير النصوص المقدسة. وأكد العديد من المفكرين والفلاسفة المسلمين أن النص المقدس بحاجة إلى إعادة تقصي وتفحص وحتى إلى إعادة تفسير في ضوء المدركات والمعارف المعاصرة، إذا بدا أنه يناقض - ظاهريا - ما يقوله العقل. فالله، برأيهم، لم ينزل على البشر كلامه فقط بل وهبهم العقل أيضا، وهو المرشد الهادي لفهم النص.

قبل زهاء ثلاثة قرون، بدأ العقل يتفوق على الدين ويكتسحه في المجتمعات المسيحية، وهذا ما حتم فصل الكنيسة عن الدولة، وشجع وروج العقلانية والمنطق والعلم، إلى جانب

التقـدم الصناعـي. وسرعان ما أصبح تحسين الوضع المـادي / الدنيوي الهدف الرئيس للمجتمـع البشري الذي كبـح في أعلى أشكاله الدين وعده متشبثا بتقاليد عتيقة تجاوزها الزمـن. ومثلت الثورة الصناعية والتأثير اللاحق للأفـكار والممارسات الرأسمالية دليلا على هذا التوكيد الجديد.

وبـدءا من القرن التاسع عشر، قامت الأمم الأوروبية التي اتبعت هذا السبيل بتوسيع سلطانهـا وسلطتهـا في العالم، فاستعمـرت واستغلـت المجتمعات التي كانـت أقل تقدما وأخضعـت معظـم العـالم الإسلامي لهيمنتهـا الإمبراطوريـة. وبحلـول منتصف القرن العشريـن، بدأت هذه المناطق والبلاد الإسلامية بالظهور مجددا متخذة أشكالا سياسية مختلفة نتيجة معاركها النضالية المتنوعة لنيل "الاستقلال". بعضها طمح لتأسيس نظام ديمقراطي، وبعضها الآخر رضي بحكم الأسر المالكة المدعومة من القوى الغربية، في حين تطلع غيرها إلى النماذج الاشتراكية التي شاعت آنذاك وتلقت المساندة من موسكو.

ومنذ أواخر القرن العشرين غاص العالم الإسلامي في عصر العولمة، الذي عده الكثير مـن شعوبه مشابها لصيغـة جديدة من الإمبريالية الغربية. حيـث تركزت بؤرة اهتمامه على إنتاج معظم السلع بأقل تكلفة ممكنة، على طريق تراكم الثروة للقلة وارتفاع مستوى المعيشـة دون الالتفـات إلى الأثر السلبي علـى المجتمع. ولم يحظ الديـن في أنقى معانيه الروحيـة، ولا العقل المؤسس على الأفكار التقليدية للعدالة والمنطق، بمكان بارز في فلسفة العولمة. أما غيابهما (الدين والعقل)، إضافة إلى أحداث الحادي عشر من سبتمبر، فقد فاقم تشوه مقاربة الغرب للإسلام.

رحلة إلى العالم الإسلامي

أوجـدت هـذه العوامل جميعا قدرا كبـيرا من الانزعاج والقلـق في العالم الإسلامي، ونتيجـة لذلـك، كانت الأصـوات التي تدعـي التحدث باسـم الإسلام مختلفـة ومتباينة ومتضاربة منذ الحادي عشر من سبتمبر. عقدتُ العزم بعد أن صدمت بهذا الاضطراب والهيجـان وسـوء فهم الغرب للعالم الإسلامي على العودة إليـه لأسمع ما يقوله المسلمون فعـلا وأختـبر الأحداث على أرض الواقع مباشرة لا عـبر مرشحات "سي.ان.ان" أو "بي بي سي"، وأقوّم كيف يستجيبون للعولمة. ففي كثير من الأحيان، ينغمس العلماء والأساتذة

الزائرون في نظرياتهم ويهملون النظر خارجها ومعاينة العالم الإسلامي الحقيقي. أردت تجنب هذا الخطـأ عبر مراقبة المسلمين والتحدث إليهم وسماع آرائهم وأفكارهم. وحين ناقشت فكرة القيام برحلة ميدانية طويلة من هذا النوع قدمت الجامعة الأمريكية، ومعهد بروكينز، ومنتدى بيو المعني بالأديان والحياة العامة، الدعم والتأييد والمساندة.

بدا أن إحدى الطرق الواضحة لفهم المجتمع الإسلامي بصورة أفضل تتمثل في معرفة واكتشاف ما يلهم أفراده ويصوغ قيمهم في الماضي والحاضر. وفي سبيل هذه الغاية، كان مـن المهم معرفـة الكتب التي يقرؤونها، وكيف تؤثر الإنترنـت ووسائل الإعلام العالمية في حياتهم، وهل يمكن تحديد وتعريف ذهنية المسلم في نهاية المطاف وكيف تتصل بالإسلام. ولن تكون هذه دراسة "استشارية" نمطية تتألف من مقابلات شخصية مع نظراء وأنداد يتبنون آراء وأفكارا مشابهة في بيئة مريحة. بل محاولة جادة حقيقية للتنقيب والحفر في عمـق المجتمع الإسلامي وتوثيـق تجارب ومدركات المسلمـين العاديين عبر طيف جغرافي واسع وعريض.

تختلـف المناطـق التي قمنا بزيارتها - الشرق الأوسط، وجنـوب آسيا، وشرق آسيا - مـن عـدة جوانب وملامح مهمة. فالمعلـم المميز للشرق الأوسط يتمثـل في اللغة المشتركة - العربية - التي يستخدمها سكانه، وهي لغة القرآن الذي تنزل على النبي؛ فضلا على أن النبي نفسه كان عربيا. ولأن القرآن وسنة النبي هما الركيزة المؤسسة للعقيدة الإسلامية والهويـة الإسلامية، يشعر العرب بنوع من التفـوق الروحي على المسلمين الآخرين. بعض البلـدان العربية غنيـة بالنفط، وبعضها الآخر يتأثر تأثـرا مباشرا بالصراع في فلسطين والعراق بسبب القـرب الجغرافي. أما الملمح اللافت في المنطقة التالية، جنوب آسيا، فهو الأصـول الهندية لسكانها. هنا، تفاعـل وتأثر الهندوس من ممارسي اليوغا مع المتصوفة المسلمين للعثور على طرق وسبل لتبادل فهم المقدس عبر فجوة الأديان. وما تزال الحيوية ترشـح من هذه المنطقة، التي ظهرت فيها إمبراطورية المغول وغيرها من الإمبراطوريات الإسلاميـة القويـة ونافست تلـك الموجودة في المنطقـة العربية. المنطقـة الثالثة، الشرق الأقصـى من آسيا، التي تضم ماليزيا وإندونيسيـا، لا تتحدث العربية ولم تكن جزءا من أي إمبراطورية إسلامية كبرى، فقد وصل الإسلام إلى هناك برفق وبطء بواسطة التجار

والمتصوفة، وتكيف وامتزج وتوالف مع مختلف الديانات، خصوصا الهندوسية والبوذية والمسيحية.

كانت مقاربتنا، بالضرورة، متعددة التخصصات: فقد سعينا إلى الاعتماد على أفضل الرؤى والمنجزات المتحققة في العلوم السياسية والاجتماعية واللاهوتية، وفوق كل شيء الأنثروبولوجية. وأعتقد أن الأنثروبولوجيا تقدم أدق صورة ممكنة للمجتمع - أي مجتمع - برمته عبر مناهجها الجامعة والشاملة[5]. فالأنثروبولوجيون يعيشون بين الناس الذين يدرسونهم ويتفاعلون ويتآثرون معهم، ويجمعون المعلومات عن أنماط مميزة من السلوك عبر "مشاهدة المشارك"، إضافة إلى الاستبيانات واللقاءات والمقابلات. هذه الأنماط - وهي في حالتنا أنماط تتعلق بالزعامة، وتأثير الأفكار الأجنبية في المجتمع، ودور المرأة، وقواعد السلوك القبلية والعشائرية خلال وقت التغيير، وانتشار الاضطراب وحتى العنف - يمكن أن توفر أدلة لمعالم تعرّف ومفاتيح لملامح تحدد المجتمع، وهي ما دعاه أحد الآباء المؤسسين للأنثروبولوجيا، برونيسلاف مالينوفسكي "عوامل الحياة الأهلية والسلوك النمطي غير القابلة للقياس"[6]. ومثلما أشار عالم آخر من كبار المتخصصين في هذا الميدان "توفر الأنثروبولوجيا ركيزة علمية للتعامل مع المعضلة الحاسمة لعالم اليوم: كيف يمكن لشعوب مختلفة في المظهر واللغة وأساليب الحياة المتباينة أن تتعايش معا بسلام؟"[7].

حتى بعض الكتب التي ألفها أنثروبولوجيون قبل جيل من الآن تستحق أن تقرأ لتعرّف بصيرة وفطنة أفكارها، وذلك على العكس من الحالة الكئيبة والأفكار الهزيلة للدراسات والتعليقات المعاصرة. فعلى سبيل المثال، يعرض كتابا كليفورد غيرتز "الإسلام تحت المراقبة"، وارنست غيلنر "المجتمع الإسلامي"، تحليلا متقنا للمجتمعات الإسلامية من المغرب حتى إندونيسيا، وما زال كل منهما يبهر القارئ برؤاه الثاقبة الجديدة[8].

حين عملت على رسالة الدكتوراه في كلية الدراسات الشرقية والإفريقية بجامعة لندن قبل ثلاثة عقود ودرست قبائل البشتون، التي يدعوها البريطانيون "الباتان" وعاشت على طول الحدود الباكستانية الأفغانية، كان يجب على العالم المتخصص بعلم الاجتماع أن يقضي في الحالة النموذجية سنة واحدة في إعداد العمل الميداني، ثم سنة أخرى في

إجـراء الأبحـاث في الميدان، وسنة ثالثة وأخـيرة في كتابة النتائج التـي توصل إليها. لكن التطـورات التي حدثت مذاك في تقنية المعلومـات، والاتصالات، والسفر، عدلت الشروط اللازمة للعمل الميداني الأنثروبولوجي التقليدي، وهذا سهّل الوصول إلى المجتمعات المحلية النائيـة، لكنه أحدث أيضـا بعض التغييرات فيها. ونتيجة لذلـك، وجدنا أن بضعة أشهر مكثفة من البحث الميداني كافية لتحقيق أهدافنا. إذن، لم تكن هذه دراسة أنثروبولوجية تقليدية بل نزهة أنثروبولوجية إذا جاز التعبير.

منهج البحث

الاستبيانـات التـي وضعناها كانـت مصممة للحصـول على رؤية متعمقـة للمجتمع الإسلامـي المعاصر عبر استطـلاع آراء ومشاعـر الناس الحقيقية فيما يتعلـق بالشؤون الدوليـة. وقد أعطيت إلى زهاء 120 شخصا في مواقع مختلفة (جامعات، فنادق، مقاه، مدارس، مساجـد، منازل) في كل بلد زرناه، وشملت استفسـارات عما يقرؤه المبحوثون، وماهيـة التغـيرات التي لاحظوهـا في مجتمعاتهم، وطبيعـة تفاعلهم اليومي مـع التقانة والأخبـار، والأهم آراءهـم الشخصية عن النمـاذج المعاصرة والتاريخيـة التي يحتذون مثالها (انظر الملحق).

لكن ثبت أن أسلوب المقابلة الشخصية مفيد على نحو خاص لأن المبحوثين شعروا أن الكوابـح تقل في الأحاديث المباشرة. ففي البيئـة القامعة والقاهرة في العديد من البلدان الإسلاميـة، حيث المؤسسات الاستخبارية والأمنية متيقظـة ومنتبهة على الدوام، يحجم الأفراد عن الإدلاء بآرائهم السياسية الحقيقية كتابة. وكثيرا ما يصرح هؤلاء بصدق عن آرائهـم ومعتقداتهم في الأحاديث الخاصـة في حين يلتزمون الحيطة والحذر في أجوبتهم المكتوبة. على سبيل المثال، أخبرني العديد من المدرسين أن الطلاب أشد إعجابا وانسحارا بـبن لادن مقارنة بما يكشفونه لنا في الصفوف المدرسية. ولذلك، لم نعد استبياناتنا أداة إحصائية معيارية، بل مصدر مكمل للمعلومات "لاختبار المياه الجارية" في كل بلد، وليس أخذ درجة حرارتها الدقيقة.

كانت مقاربتنا الإجمالية أشبه برواية وتقويم وتقدير شخصي لما كان يحدث في العالم الإسلامـي منذ الحادي عشر من سبتمبر. ومن اللافت أن مشروع بيو لاستطلاع المواقف

العالميـة، الـذي نفذ في الوقت ذاته على نطـاق أوسع في مختلف أرجـاء العالم الإسلامي وأوروبا والولايات المتحدة، أيد عموما النتائج التي توصلنا إليها[9].

غلت الأسئلة معلومات مهمة ووثيقة الصلة بموضوعنا، مع أنها بدت بسيطة وساذجة. على سبيل المثال، السؤال الأول في اللائحة تناول خمسة نماذج معاصرة يحتذي المسلمون مثالها (إذا لم يجد المبحوث أحدا، يمكن أن يتطلع إلى قدوة له خارج المجتمع الإسلامي). فـإن اختـار المبحوث الشاعـر الصوفي جلال الديـن الرومي، نعلم أنه أكـثر تسامحا من الآخريـن؛ وإن اختـار برويز مشـرف، فربما يفضل التعـاون الاقتصـادي والسياسي مع الغـرب. أما في حالة اختيـار المبحوث أسامة بن لادن أو أحمدي نجـاد، فمن الأرجح أنه يفضـل النموذج الذي "يقف في وجه الغرب". لم تشر اللقاءات الشخصية والإجابات عن أسئلـة الاستبيانات على حد سواء إلى نماذج معاصـرة واضحة المعالم ومحددة الدلالات في نظـر المسلمين في الشرق الأوسـط وجنوب آسيا. ربمـا كان المبحوثون على صواب من الناحيـة السياسية. لكن إندونيسيا، أكبر دولة إسلاميـة في العالم، أظهرت فعلا اتجاها واضحـا – وراديكاليا. فقـد احتل بن لادن المرتبة الثانية في الشعبيـة لأكثر النماذج التي يحتـذى مثالهـا، في حين تنافس صـدام حسين وياسر عرفات على المركـز الرابع، بنسبة 20% مـن الأصوات. واستنتجنـا أن المبحوثين الذين اختـاروا شخصيات تمثل الحداثة في الإسـلام، مثـل سيافي أنـور – وإسماعيل نـور في ماليزيا – لا بد أنهـم شعروا بالعزلة والإقصـاء والاضطهـاد في مجتمعاتهم. وربما وجد اتجاه راديـكالي مشابه في مجتمعات إسلاميـة أخرى زرناها، لكن لم يعـبر عنه صراحة أمامنا. أما ما توضح لنا فهو أن مارد الشرق النائم كان يتحرك. وعلى العالم أن ينتبه له.

النمـاذج التـي يحتذى مثالها من الماضـي والتاريخ كشفت أيضـا الكثير عن المجتمع المعاصـر. في دمشق، احتل عمر بن الخطـاب (الخليفة الراشدي الثاني في القرن السابع الميـلادي) وصلاح الدين (الذي عاش في القرن الثـاني عشر) قمة اللائحة، حيث تفوقا في الشعبية حتى على النبي ذاته، الذي يمثل القدوة الأولى لمعظم المسلمين كما هو متوقع. لكـن في هـذه الإجابات معنـى ضمنيا: فقد فتح عمـر وصلاح الدين القدس للمسلمين، وكلاهمـا حاكم مسلم عظيم اتصف بالنبل والشهامـة والورع والتقى، والأهم أنه انتصر

في ساحة الوغى. ونظرا لقرب القدس من دمشق وخضوعها للاحتلال، يتطلع المسلمون هنا بتشوق إلى قادة من طراز عمر وصلاح الدين.

وفرت المسوح غير الرسمية بداية لما توقعنا أن نعرف عنه المزيد: ففي حين أدرك المسلمون أنساق العولمة ورغب الكثيرون منهم بالمشاركة فيها، إلا أنهم شعروا بأنهم ممنوعون من الحصول على منافعها وفوائدها. فتنفسوا عن غضبهم في خضم إحباطهم وخيبة أملهم باللجوء إلى النماذج والقادة الذين وعدوهم ببعض الأمل في استعادة شرفهم وكرامتهم. لهذا يفضل هذا العدد الكبير من الشباب المسلم في عصر العولمة بن لادن على بيل غيتس.

في حين أن قاعدة عملياتنا للرحلة كثيرا ما كانت فندقا رحبا، إلا أننا زرنا أيضا أماكن بعيدة جدا عن حدوده وتخومه. وعبر زيارة الأسواق أو البلدات النائية أو مجرد ركوب سيارات الأجرة، مثلا، تمكنا من التحاور والتحدث مع المسلمين العاديين، الذين حرصوا عادة على عدم التكلم في السياسة مع الغرباء، لكنهم كانوا أكثر صراحة حين علموا أنني مسلم. وبذلك، شاهدنا جانبا من المجتمع الإسلامي لا يظهر غالبا على العلن.

فضلا على ذلك كله، وفرت المقابلات مع الشخصيات الإسلامية المهمة لمحة إلى أفكارها الداخلية المتعلقة لا بدورها كنماذج يحتذى مثالها فقط، بل برؤيتها لمستقبل الأمة الإسلامية. بعض الإجابات كانت مفاجئة فعلا. فقد ملأت الإثارة الرئيس برويز مشرف وهو يصف الحملات العسكرية الناجحة لبطله، نابليون بونابرت (كانت معركة اوسترليتز أعظم نصر حققه نابليون برأيه). أما مصطفى سيريتش، مفتي البوسنة الذي قابلناه في الدوحة، فقد اختار الإمام الغزالي، الفيلسوف والفقيه الشهير، قدوة له. في حين تحدثت بنظير بوتو بحماس عن القدوة التي اختارتها، فاطمة بنت النبي، ووجدت فيها العديد من أوجه الشبه، فكلتاهما فقدت والدها الحبيب في وقت حاسم من حياتها. ولم يكن من المفاجئ أن يكون نبي الإسلام النموذج الذي يحتذى مثاله برأي جميع هذه الشخصيات الإسلامية العالمية.

كان هؤلاء القادة والزعماء المسلمون يعبرون عن مشاعر أوسع تجتاح العالم الإسلامي. فالنبي هو القدوة النهائية في نظر الأغلبية الساحقة من المسلمين، بغض النظر عن الجنس

والعمـر والعرق والجنسيـة. لذلك لم يفاجئنـي اكتشاف أن الإدراك المشـوه للإسلام في الغرب - الذي يشمل شن الهجمات والانتقادات اللاذعة على النبي - كان الشغل الشاغل لعقول المسلمين حين سئلوا عن أهم مشكلة تواجه الإسلام. وهيمنت على الأجوبة المتوقعة - إسرائيـل، محنة الفلسطينيـين، الوضع في العراق - فكرة أن الغرب يضمر حقدا دفينا خبيثـا علـى الإسلام ويحـاول إلحـاق الأذى به. ولا شـك أن أولئك الذيـن يخططون في العواصـم الغربية ويضعون استراتيجية تستهدف اكتساب قلوب وعقول المسلمين، بحاجة لأخذ هذه الحقيقة بعين الاعتبار.

رئيس الوزراء الباكستاني السابق، تشودري شوجات حسين (الثاني من اليسار)، ورئيس وزراء إقليم البنجاب، أكبر مقاطعـة باكستانيـة، برويـز إلاهي (في أقصى اليمين)، أقامـا حفل غداء في مكتب إلاهـي في لاهور (حيث أحاطت بالضيوف صور أباطرة المغول) تكريما للفريق، ويبدو أكبر أحمد وهيلي ولدت.

كنـا - أنـا وفريقي - على وعي تـام بالسياق الثقـافي للمسح الذي أجرينـاه. ولأنني مسلم، استطعنا الوصول بطريقة استثنائية إلى العديد من الأشخاص والشخصيات طوال رحلتنـا. فقد تلقينا دعوات عديدة إلى المنازل أو الغداء أو العشاء أو لحضور الاجتماعات غير الرسمية، وتعلمنا الكثير عن آليات عمل المجتمعات الإسلامية: ومن بين هؤلاء الذين أظهـروا كـرم الضيافة لنـا أصدقـاء في استنبول، والشيـخ فرفور في دمشـق، وأصدقاء وعائـلات في كراتشـي وإسلام أباد، وكبير علمـاء الدين في ديوباند. حتـى الشخصيات السياسية الشهيرة دعتنـا إلى الغداء أو العشاء وشاركتنا أفكارها عن الإسلام وتجاربها

في المجتمعات الإسلامية. في باكستان مثلا، ضمت قائمة مضيفينا محمد ميان سومرو، رئيس مجلس الشيوخ؛ وعضو مجلس الشيوخ مشاهد حسين؛ والوزير السابق شفقت شاه جاموت؛ وأسد شاه؛ وصدر الدين هشواني؛ وغضنفر مهدي.

أرسل تشودري شوجات حسين، رئيس وزراء باكستان الأسبق، وبرويز إلاهي رئيس وزراء البنجاب، أكبر أقاليم باكستان، موكبا من الشرطة إلى مطار لاهور لاصطحابنا إلى مأدبة غداء قبل أن نغادر إلى دلهي. ولم نستقبل بحرارة فقط بل قدمت لكل منا سجادة باكستانية ملونة تذكارا لزيارتنا. كان حسين مضيفا ودودا وكريما، حتى حين اشتكى مازحا من أنني "سيئ مثل بوش" بعد أن عرف بأنني سأمضي في الهند ضعف المدة التي قضيتها في باكستان. وكان يشير بذلك إلى زيارة بوش إلى باكستان التي استمرت يوما واحدا وأثارت عاصفة من الانتقاد في وسائل الإعلام لأنه أمضى أسبوعا تقريبا في الهند. كانت صورة شابين أمريكيين يتناولان الغداء مع رئيس وزراء باكستان السابق في غرفة الطعام الخاصة الكبيرة لرئيس وزراء البنجاب، وقد ملأت جدرانها صور أباطرة المغول، شهادة تثبت الكرم المتأصل في الأشخاص الذين زرناهم ومدى أهمية الدراسة التي أجريناها. تلقينا طوال الرحلة أيضا ترحيبا مشابها من السفارات الأمريكية، التي تحيط بها عادة إجراءات أمنية مشددة فتبدو مثل السجون المحروسة، ومن السفارات الباكستانية، واكتسبنا مزيدا من الرؤى المتعمقة من وجهات نظر الدبلوماسيين وتجاربهم وخبراتهم.

لم تمنعنا الأخطار الحقيقية والمباشرة المحدقة من المغامرة بتجاوز أسوار الفنادق وحراس السفارات. ألقيت محاضرات عامة في المساجد والمدارس، فضلا على غيرها من المنتديات. وفي كل مكان واجهت وابلا دفاقا من المشاعر والأسئلة المناهضة لأمريكا والمعادية للسامية (غدا العداء للسامية أكثر مراوغة نسبيا، وإن ظل حماسيا، حين انتقلنا خارج العالم العربي). كنت أجيب بالقول إن أمريكا ليست كتلة جامدة واحدة وكذلك اليهود، مع الإشارة إلى أن من الخطأ أن يرى المسلمون والأمريكيون بعضهم ككتلة صلدة واحدة وغير متمايزة. مستشهدا بقس وحاخام، وغيرهما، مد كل منهم يد الصداقة والترحيب إلي في واشنطن في تلك الأيام الكئيبة والعصيبة بعد الحادي عشر

من سبتمبر، ذاكرا على وجه الخصوص القس جون تشاني من الكاتدرائية الوطنية الذي بعث إلي برسالة تهنئة وتحية بمناسبة عيد الميلاد حركت مشاعري بسبب ما أظهرته من إحسان وتراحم وتعاطف ووحدة بين ذرية إبراهيم: "جبريل أرسله الله لينزل التوراة على موسى، والقرآن المقدس الكريم على النبي محمد". كان الإقرار بقداسة القرآن ونبوة محمد كافيا لإحداث زلزال لاهوتي في ذهني، لكن كلمات القس في سياق العداء المستفحل للمسلمين بعد الحادي عشر من سبتمبر، أظهرت شجاعة نادرة ومخيلة استثنائية وتراحما قل نظيره.

على جانب المسلمين، عبرت وزيرة المغتربين في سورية، بثينة شعبان، والعديد من المسلمين طوال رحلاتنا، عن مشاعر مشابهة من الروحانية المشتركة بين الأديان. أبلغتنا شعبان أن "المسلمين والمسيحيين ظلوا من عام 627 وحتى عام 647م يصلون معا في الجامع الأموي، إلى أن تقرر بناء كنيسة. يجب ألا نفكر بشرق وغرب. إذ لا يمكن أن تكون مسلما حتى تؤمن بإبراهيم وعيسى. إن أقدم كنيس يهودي موجود في دمشق وكذلك أقدم كنيسة في العالم".

المسلمون يصلون داخل الجامع الأموي أمام مقام النبي يحيى (القديس يوحنا المعمدان). أما قبر صلاح الدين، الحاكم المسلم العظيم، فيقع لصق سور المسجد.

بثينة شعبان على حق. فالتاريخ الإسلامي يظهر ثراء وتعقيدا على الصعيد الثقافي يؤكدان قدرة الإسلام على استيعاب وتمثل التقاليد التراثية المختلفة. تأكد لنا ذلك عند زيارتنا للمسجد الكبير في دمشق الذي بناه الأمويون، أول أسرة عظيمة حكمت المسلمين. فحين شيد المسجد في القرن السابع، اشترك في الحيز المكاني مع كنيسة موجودة سابقا، ومارس المسلمون والمسيحيون شعائرهم التعبدية معا. لكن في القرن الثامن، أمر الخليفة ببناء مسجد كامل في المكان ليرمز إلى الأهمية المتعاظمة لدمشق كعاصمة للعالم الإسلامي. ويقال إن المسجد، الذي كان أكبر وأكثر المساجد تأثيرا آنذاك، ضم أضخم فسيفساء مذهبة في العالم إلى أن أتلف حريق نشب عام 1893 تشكيلات الفسيفساء ودمر معظم المسجد ذاته تقريبا.

تظهر عمارة المسجد الكبير بأسلوب درامي التأثيرات البيزنطية والرومانية والعربية، مع أن المخطط الهيكلي العام مؤسس على بيت الرسول في المدينة. وهو يضم مقام رأس يوحنا المعمدان (النبي يحيى في الإسلام)، ومقاما آخر يحوي رأس الحسين حفيد الرسول وابن علي بن أبي طالب الذي يجله الشيعة؛ ويقع خارج أسوار المسجد مباشرة قبر صلاح الدين، أحد أعظم القادة المسلمين، وكان البابا يوحنا بولس الثاني قد زار مقام يوحنا المعمدان عام 2001، وأصبح بذلك أول بابا يزور المسجد. رأيت رأي العين كيف يأتي الزوار إلى كل هذه المواقع التاريخية: حيث يصلي المسيحيون عند مقام النبي يحيى، والنساء المتشحات بالسواد اللاتي أتين من إيران وما زلن يندبن الحسين، والعلماء والفقهاء والسياح يعبرون عن إعجابهم وتقديرهم لصلاح الدين.

سمى العديد من المسلمين خلال رحلتنا المسيحيين واليهود "أهل الكتاب" الذين يجلهم القرآن ويتقاسمون مع المسلمين كثيرا من الروابط المشتركة. تلك هي الرسالة التي كنت أسعى إلى نشرها في الولايات المتحدة. وخلال حديثي مع جمهوري من المسلمين، كنت أذكر أيضا أنني تأثرت شخصيا بمثال صديقي جوديا بيرل، الذي فقد ابنه الوحيد داني في جريمة قتل وحشية ومروعة في كراتشي. وبصفتي أبا، عرفت مدى عمق الجراح التي أصابت جوديا وزوجته روث. فبعد أن عرفته على مدى السنين عبر حواراتنا التي أجريناها على الصعيدين الوطني والعالمي لتشجيع الفهم المتبادل بين المسلمين واليهود،

رأيت كيف حول بأسلوب بطولي مأساته الشخصية إلى جسر في سبيل فهم الحضارة ذاتها التي أفرزت قتلة ولده. كنت أشرح قائلا إن مثل هذه الصداقات ساعدت على تغيير العلاقات بين المسلمين واليهود والمسيحيين في الولايات المتحدة.

قتل داني بيرل نتيجة الكراهية، والمشكلة مع الكراهية أنها تزدهر وتنمو على الكذب والتزوير. لقد صدمت حين اكتشفت المدى الذي تستخدم فيه الكتابات المزورة والخيالية، مثل كتاب "بروتوكولات حكماء صهيون" لتوليد الكراهية لليهود. هنالك أفلام صنعت في الشرق الأوسط منذ عهد قريب اعتمادا على هذه الرواية المختلقة، ويبدو أن الملايين يقبلونها كحقيقة لا لبس فيها. في هذا المناخ، حازت الكتابات والعبارات التي تضع محرقة اليهود (الهولوكوست) موضع المساءلة والتشكيك وتشجع على استئصال شأفة شعوب بأكملها، حازت القبول والموافقة، مع أن العديد من المسلمين أمثالي يجدونها غير مقبولة وكريهة وعبروا عن رأيهم بها علنا. في الوقت ذاته، انتشرت أكاذيب مماثلة عن المسلمين، "عبدة الشيطان" وأتباع رجل كان "إرهابيا"، وشاعت وقبلت بوصفها حقائق دامغة. ولا شك في أن مثل هذه القوالب المنمطة تشجع مزيدا من الكذب والتزوير والبهتان وتخلق جوا يمكن أن يفضي إلى العنف.

يتطلب كبح انتشار مثل هذه المدركات الخاطئة والتصورات المغلوطة أكثر من مجرد أساليب لبقة ومهذبة. ففكرة أن اليهود "يسيطرون" على العالم بطريقة مباشرة أو غير مباشرة عبر مختلف أشكال المؤامرات تتخلل النقاش في العالم الإسلامي على مستويات عديدة، بدءا بالتعبيرات الحماسية عن النظرة الإيديولوجية إلى العالم، إلى الأحاديث العابرة في الأسواق. وحتى الشخصيات السياسية الشهيرة قد تشير بعبارات جذلة إليها على سبيل التسلية، وذلك كما اكتشفت في المقابلة الشخصية التي أجريتها مع بنظير بوتو في الدوحة (شباط / فبراير 2006). فما زالت السيدة بوتو تحتفظ بحس الدعابة الذي يميز مرحلة الصبا والشباب، مع أنها شغلت منصب رئيسة وزراء باكستان مرتين، وهي مهمة صعبة أوصلت والدها إلى حبل المشنقة. حين التقينا، قالت بخفر مع ومضة التمعت في عينيها: "إذن، أنت تعمل الآن مع مركز سابان؟". فهمت الإشارة المبطنة إلى صلتي مع معهد دراسات الشرق الأوسط الذي حمل اسم المؤسس اليهودي البارز المشهور بأعماله

الخيرية. ابتسمت وأنا أفكر بالمفارقة: كنا معا ضيفين على المؤتمر الذي نظمه المركز ذاته وتكرس لتشجيع الفهم المتبادل بين الولايات المتحدة والعالم الإسلامي.

وبسبب المستويات المرتفعة من المشاعر المناهضة لأمريكا والمعادية للسامية التي واجهتنا خلال رحلتنا، مال الكثيرون إلى لوم غير المسلمين على مختلف المؤامرات التي تحاك ضد الإسلام. وأبلغوا فريقنا أن أعمال العنف في الحادي عشر من سبتمبر، ثم في تفجيرات لندن في السابع من تموز/ يوليو 2005، لم يرتكبها المسلمون بل أشخاص يريدون تشويه سمعة الإسلام. حالة الإنكار الواضحة هذه كانت تملأ بالهم والغم أشخاصا مثلي أدانوا العنف وقبلوا الأدلة الدامغة والمتوفرة على نطاق واسع - ومنها المقابلات على شاشات التلفزيون. وما يثير قدرا مماثلا من الحزن والكرب أن المسلمين غير قادرين على ما يبدو على قبول حقيقة أن جماعات من المسلمين هي المسؤولة عن الصدامات الدموية بين السنة والشيعة في مساجد باكستان أو ضواحي المدن العراقية، أو أعمال القتل الوحشية التي ذهب ضحيتها دانييل بيرل، ومارغريت حسن، ونيكولاس بيرغ. في منتدى بعد آخر، هاجمت أعمال العنف هذه وتحدثت عن الحاجة إلى التوكيد للشباب المسلم أنها تتعارض مع الطبيعة الحقيقية للإسلام.

أعطت تعاليم الإسلام - في صيغتها المثالية - الأولوية فيما يتعلق بالشؤون الإنسانية إلى العلم والمعرفة واستخدام العقل بدلا من العاطفة والغضب والصرعة. ومثلما كنت أذكر المسلمين الذين جاؤوا ليستمعوا إلى محاضراتي، فقد قال النبي "حبر العالم أقدس من دم الشهيد". يحظى هذا الحديث الشريف بأهمية بالغة وله مضامين تتصل بالحالة المعاصرة في العالم الإسلامي. إذ يتلقى العديد من المسلمين الشباب التشجيع على العمل بعكس ما يقوله الحديث وتؤكد التعليمات والدروس التي يتلقونها أهمية التضحية والقتال على حساب المعرفة وطلب العلم والعقل والمنطق. وأردت من كل مدرس وزعيم مسلم استخدام الحديث كشعار؛ ومن غير المسلمين فهم الطبيعة الحقيقية للإسلام بواسطته.

ما أذهلني أكثر من التشكيك الذي عبر عنه المسلمون فيما يتعلق بالأحداث المحيطة بالحادي عشر من سبتمبر التغير في مواقف الأمريكيين تجاه أحداث ذلك اليوم: فبحلول

عـام 2006، أفصـح ثلـث الأمريكيـين عن مثل هـذه الشكـوك وتزايـدت الكتابات التي تضـع نظريـات مختلفة مثيرة للجدل[10]. فقد كان النـاس -بأسلوب بطيء في البداية- يتحـدون سياسـات الإدارة لا فيمـا يتعلق بالحرب على الإرهاب فقـط، بل بالعراق وحتى باستراتيجيتها للأمن.

وفي معرض الاستجابـة للمستوى المرتفع مـن المشاعر المناهضة لأمريـكا والمعادية للساميـة خلال رحلتنـا، لم أستطـع مقاومة اللجـوء إلى غرائز التدريـس الفطرية لدي واقـتراح بعض الكتـب ذات الصلـة ليقرأها جمهـوري في المساجد أو المدارس. الكتاب الأول هـو: "احترام الاختلاف" لجوناثـان ساكس كبير حاخامي بريطانيـا[11]. الكتاب يناشـد ويطالب بإلحاح بالفهم الإبراهيمي في عصر العولمة، ويؤكد الحاجة إلى التعاطف والتراحم والإحسان في جميع ميادين ومجالات التفاعل العالمية، ومنها توزيع الثروة. تلك كانـت واحدة من المرات القليلة التي يوصي فيهـا مسلم بقراءة كاتب يهودي، بل حاخام، في أحـد مساجد دمشق، والمعهد الملكـي في عمان، والمدارس الدينية في دلهيوهذا ما فاجأ الجمهور، حتما.

أوصيـت أيضا بقـراءة كتاب كارين ارمسترونـغ "المعركة من أجـل الله"، الذي يصف الجـدل المحتدم داخل اليهودية والمسيحية والإسـلام بين الأصوليين وإخوانهم الأكثر حداثة أو ليبراليـة في الدين[12]. أمـا كتابي "الإسلام تحت الحصار" فقد مثـل الاقتراح الثالث. وهـو يقدم الحجـة على أن المجتمعـات المعاصـرة تشعر جميعـا بأنها تحـت الحصار[13]. فقـد شعـر الأمريكيون بعد الحادي عشر من سبتمبر بأنهـم معرضون لهجوم متواصل؛ وفي الحقيقـة كانت عناوين الأخبار التـي تبثها المحطات التلفزيونية تركز على أن "أمريكا تحت الحصـار". الإسرائيليون على استعداد دائم للحـرب ويعتقدون أنهم مطوقون بالملايين من الجـيران الراغبين بمحو دولتهم عن الخريطة. المسلمون يشعـرون بأنهم محاصرون تماما ولهم العديد من الشكاوى والمظالم. وحين تشعر المجتمعات بأنها مطوقة من كل حدب وصوب، تميل إلى اتخاذ موقف الدفاع، وهنا لا توجد فسحة كافية للحكمة أو الرحمة أو التعاطف.

فضـلا على ذلـك كله، كنت حـين أقدم أعضـاء الفريق الأمريكيـين الذين رافقوني في ترحـالي، أذكر الحضور بـأن من الظلم أن يضع المسلمون جميـع الأمريكيين في قالب

مصمت واحد وكتلة صماء صلدة ويحصروهم في خانة الكراهية للإسلام والمسلمين. فعلى الرغم من كل شيء، ها هم طلاب أمريكيون مثاليون يسافرون إلى قلب العالم الإسلامي، يمدون له يد الصداقة وتدفعهم رغبة جارفة في تحسين الفهم وزيادة المعرفة. فعبر النيات الحسنة وتجسيد الديبلوماسية العامة بأفضل صورها، كان هؤلاء الطلاب سفراء حقيقيين لمجتمعهم لأنهم تجشموا مشقة السفر إلى أرض المسلمين، والتزموا بناء الجسور، وطرحوا الأسئلة الصحيحة، مثلما علق جوناثان هايدن:

في العاصمة الإندونيسية جاكرتا، وزعت الاستبيان في صف من خمسين طالبا في الجامعة الإسلامية. صممت الأسئلة لكشف مشاعرهم تجاه الغرب والعولمة والتغيرات الجارية داخل الإسلام. كانت نسبة الطالبات تبلغ 70% تقريبا وتقع أعمارهن بين 19. 23 سنة. كان الحجاب إلزاميا لكن لو خلعته أي منهن لبدت مثل أي طالبة جامعية في أمريكا.

اتسم الطلاب بالود والمرح وأرادوا التقاط صور معنا وسألونا عن الولايات المتحدة. لكن لماذا اختار زهاء 75% منهم شخصيات مثل أسامة بن لادن، وصدام حسين، وآية الله الخميني، ويوسف القرضاوي وياسر عرفات، وأحمدي نجاد نماذج يحتذى مثالها في نظرهم؟ لدينا مشكلة على ما يبدو. فإذا اختار هؤلاء الطلاب الشباب أبطالهم من المعادين للولايات المتحدة، فما الذي نستطيع فعله لتغيير ذلك؟ ما الذي أدى إلى هذا الاختيار؟ من يقدر على مساعدتنا؟ وأين المسلمون المعتدلون؟ يجب أن نحاول العثور على أجوبة عن هذه الأسئلة إذا أردنا بناء جسور التواصل مع البلدان الإسلامية وتجنب "صدام الحضارات".

العثور على الأجوبة ليس أمرا سهلا كما هو واضح ويتطلب وقتا وجهدا. لكن من الأشياء التي لاحظتها في ماليزيا وإندونيسيا الدور الحيوي الذي سيؤديه المسلمون المعتدلون. وأنا أحجم عن استخدام كلمة "معتدلين" بسبب مداليلها السلبية. فهي تشير كما علمت إلى أولئك الذين يمتنعون عن الدفاع عن أي شيء.

لكن الأشخاص الذين أعنيهم بعبارة "المسلمين المعتدلين" هم المدافعون عن الهوية الحقيقية للإسلام في حين يعيشون ويمارسون نشاطا فاعلا في "عصر العولمة" هذا.

ومما تعلمته في هذه الرحلة أن المسلمين المعتدلين يطبقون تعاليم الإسلام التي تحض على التراحم والإحسان كما جاءت في القرآن، دون رفض الحداثة والغرب. وهم كما علمت ليسوا أقلية ولا تعوزهم القوة[14].

تبدت قوة وتأثيرات وسائل الإعلام العالمية بوضوح أيضا خلال رحلتنا. فقد غذت هذه الوسائل الشعور بالخطر الداهم وضرورة مواجهة الإرهاب المرتبط بالإسلام. فعندما كنا في عمان، سمعنا تقارير عن حدوث انفجار ذهب ضحيته ديبلوماسي أمريكي وعدد من الباكستانيين على بعد أمتار من فندق ماريوت المجاور للقنصلية الأمريكية في كراتشي، قبل أيام من وصولنا إلى هناك؛ ثم حدث انفجار آخر في فندق ماريوت جاكرتا حيث أقمنا؛ كما هزت الانفجارات استنبول ودلهي وإسلام أباد بعد زياراتنا لها. بدا الأمر وكأنه "روليت روسية" إلى متى سنقدر على النجاة من الضربة القاتلة؟

لم تغب رحلتنا عن انتباه وسائل الإعلام. فقد سجلت بأمانة بوصفها "محاضرة تعليمية عن الأسفار" على موقع (Beliefnet.com) الإلكتروني، حيث قدمتُ آخر المعلومات والرؤى عن البلدان التي كنا نزورها، في حين كتب فرانكي وهيلي وجوناثان وأمينة مقالاتهم فيه[15]. وأجرت معي كبريات الصحف الوطنية مقابلات مطولة، مثل صحيفة "نيشن" في باكستان، و "انديان اكسبريس" و "هندوستان تايمز" في الهند. كما ظهرت على تلفزيون الجزيرة في قطر، وقناة تلفزيونية أخرى في الهند (Doordarshan) بثت المقابلة في وقت الذروة ليشاهدها حوالي 500 مليون شخص في جنوب آسيا. وقام أعضاء فريقي بجولة في استوديوهات قناة الجزيرة وشاهدوا تصوير أخبار المساء. وجدنا المسلمين في كل مكان مطلعين تماما على أحداث العالم بسبب وسائل الإعلام. أما إمام مسجد المدرسة في دلهي فقد أبلغنا أنه يعرف بالضبط أين تسافر وزيرة الخارجية الأمريكية لأنه يتابع أخبارها بدقة.

مع اقترابي من آخر العمر، كانت هذه الرحلة مغامرة ختامية عظيمة لي. صحيح أن رحلتي السابقة في طول العالم الإسلامي وعرضه قد تحولت إلى سلسلة تلفزيونية بثتها هيئة الإذاعة البريطانية تحت عنوان "الإسلام الحي" عام 1993، لكن التطورات التي حدثت منذ ذلك الحين في السياسة والاقتصاد ووسائل الإعلام وتقنية المعلومات تقدمت

بخطـى سريعة. في هذه الرحلـة، بدا أن كل شخص قابلته في أي مكان قد قرأ شيئا كتبته علـى الإنترنـت أو شاهدني على شاشة التلفزيـون[16]. في استنبول، كنـت أتناول الغداء مـع رئيس إحدى المؤسسات الاستشارية الرائـدة في بداية الرحلة، حين تقدم نحوي رجل ضخم الجثة أشعث اللحية بطريقة عدائية وقال: "ألست أنت أكبر أحمد"؟ أومأت رأسي بهـدوء وابتسمت بتمهل محاولا معرفـة الوجهة التي سيتخذها حديثنـا. تابع قائلا: "أنا مسلم من تشيلي، شاهدتك تشرح الإسلام في برنامج اوبرا. شكرا لك على جهدك".

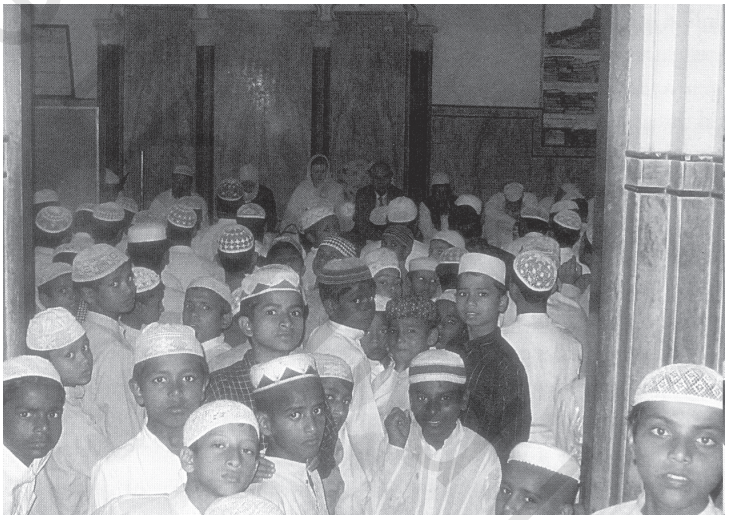

في جامع/مدرسـة في دلهـي، تجمعت جمهـرة من الصبية حول الفريـق (في خلفية الصورة) لسمـاع محاضرة يوم الجمعة. يقع المسجد/المدرسة قرب الجامع الكبير الذي بناه الإمبراطور المغولي شاه جيهان.

أدهشتني طوال الرحلة قدرة وسائل الإعلام الأمريكية على الوصول إلى أقاصي العالم والـروح العالمية المميزة للمسلمين. لقد اقتربت أجزاء العالم بعضها من بعض بطريقة ما كنـت لأتخيلها في رحلتي الطويلة السابقة، وتغير الكثـير أيضا. أدركت بسرعة أن مشكلة فهـم الإسـلام العالمي والتعامل معه أكبر بكثير مما توقعـت. وحتى في هذه الحالة، عدت حامـلا إحساسا جديدا بالأمل بعد أن رأيت أشخاصا مهتمين ويتميزون بالطيبة واللطف من جميع الأجناس والأديان في كل مرحلة من مراحل الرحلة. وتظهر حيويتهم وحماستهم وعواطفهـم وجـود أرضية مشتركة للحوار. لذلك، يوثق الكتـاب عدة طبقات من رحلتنا: فهو يصف رحلة ميدانية موسعة إلى العالم الإسلامي قام بها أستاذ جامعي وفريق يتميز

أعضـاؤه الشباب بالحيوية والطاقـة وحب الاستطلاع والمعرفة؛ عـالم اجتماع يسعى إلى فهـم نظري لتأثير العولمـة والتحديات التي تجبه المجتمعـات التقليدية؛ باحث مسلم عاد بعـد مدة طويلـة محاولا فهم مجتمعه ومساعدته على العثور علـى سبيله؛ باكستاني يعود إلى وطنـه بعد أن قضـى في الغرب سنوات عديدة؛ رجل متفائل يسعى إلى تشجيع الحوار والفهـم بين حضارتين يتفاقم العداء بينهمـا عبر جعل الطرفين يدركان الأخطار العالمية التي تواجه الجميع.

الإسلام في عصر العولمة

خلافـا للمناقشات الأخـرى المتعلقة بالإسلام، لن تتعامل هـذه الدراسة معه بوصفه حالة معزولة عند تشخيص العلل التي يعانيها. إذ أريد الآن أن أضيف إلى الركائز المؤسسة لكتابي السابق "الإسلام تحت الحصار"، الذي قدمت فيه الحجة على أن المجتمعات كلها تشعر اليوم بالتهديد المادي المتعين، حقيقة أنها جميعا - ربما باستثناء المجتمع الأمريكي - تشعـر بالتهديد الثقافي أيضا نتيجة الموجة الكاسحـة للعولمة. والإسلام يحظى بأهمية خاصة بسبب علاقته الوثيقة الإيجابية والسلبية بالولايات المتحدة، ولأن عدد أتباعه يبلغ الآن 1.4 مليـار نسمـة ويمتد على خمس قارات، وهذا ما يجعلـه موضوعا مثاليا لدراسة حالة لحضارة تقليدية تشهد تغييرا في عصر العولمة.

شاعت مناقشـة حجم المشكلات التي تفرضها العولمة على نطاق واسع، لكن لم تقدم سـوى اقتراحات قليلـة لطريقة حلها. توماس فريدمان الصحفـي في "نيويورك تايمز" وأحـد أشهر المعلقين علـى الموضوع، تبنى رأيـا حميدا وإيجابيا، حيث سـاوى بين العولمة و"الأمركـة" ونشر الديمقراطية والقيم الأمريكية[17]. وظل متمسكا بالتفاؤل فيما يتعلق بـروح وعصر العولمة، مع أنه مدرك لحقيقـة أن الهند والصين تعملان بهمة ونشاط على تحـدي التفوق الأمريكي. ومن المتوقع في الحالة المثالية أن توجد العولمة الظروف المناسبة التـي ستصـل أمم العالم المختلفـة بعضها ببعض وتؤسس من ثم "قريـة كونية" تتبادل المنافع والمكاسب والفوائد.

الآراء الأخـرى أشد قتامـة وتشاؤما. فالكتب التعليمية المعياريـة تشير إلى التحولات الاجتماعيـة والاقتصاديـة والتقانيـة الهائلة التي تحـدث الآن بسبب العولمـة، مع تبعات

وعواقب يصعب التنبؤ بها[18]. والتغيرات الاجتماعية والاقتصادية والتقانة السريعة والواسعة النطاق في أعقابها تجبر الناس في شتى أرجاء العالم على تعديل أساليب حياتهم. وفي مواجهة مثل هذا القدر من التغيير، يشعر الكثيرون بالقلق وغياب اليقين فيما يتعلق بالمستقبل، وهي حالة يسميها العلماء والباحثون "ثقافة الهلع" أو "المجتمع المحفوف بالخطر"[19]. العولمة في نظر انتوني غيدنز، عالم الاجتماع الرائد، "توجد عالما من الرابحين والخاسرين، أقلية على سكة الازدهار السريعة، وأغلبية محكوم عليها بحياة البؤس واليأس"[20]، وبذلك، فهو يرى أن العولمة ليست سوى "نهب كوني"[21].

وباستعارة عبارة من الأنثروبولوجي ادمون ليتش، يقدم غيدنز الحجة على أن العولمة توجد "عالما هاربا"[22]. وكان ليتش قد استعمل العبارة عنوانا لسلسلة من المحاضرات ألقاها بعد إضافة علامة استفهام. لكن غيدنز يقول إن التطورات التي حدثت على مدى العقود القليلة الماضية تشير إلى أن العالم الآن أصبح "هاربا" : "هذا ليس – على الأقل الآن – نظاما عالميا مدفوعا بإرادة البشر الجمعية. بل يبرز بدلا من ذلك بأسلوب فوضوي وعشوائي واعتباطي.. ليس فيه استقرار ولا أمن، لكنه يضج بالقلق فضلا على الندوب التي تحدثها الانقسامات العميقة. كثيرون منا يشعرون بأنهم في قبضة قوى لا يملكون عليها أي سلطة"[23].

لم يصل فريدمان وغيدنز كلاهما إلى حد إثارة القضايا الأخلاقية الكبرى، لا سيما حقيقة أن العولمة تفتقد الجوهر الأخلاقي، مع أنهما يدركان النجاحات والإخفاقات الاقتصادية للعولمة. وهذا بالضبط هو السبب الذي يجعل الجشع والغضب والجهل – السموم الثلاثة التي حذر منها بوذا – تزدهر دون ضابط وتحدد وتعرف العصر الراهن[24]. إذ كبحت الأفكارُ التقليدية في الدين وقواعد السلوك، التي تجسد العدل والإحسان والعلم، هذه الخصائص والسمات السلبية، مع أنها ظلت على الدوام جزءا من النسيج الإنساني. وكانت تلك المفاهيم كالترياق الذي يشفي من السموم ويمكن العثور عليها في جميع الديانات الكبرى: اليهودية والمسيحية والإسلام – حتى في الهندوسية التي خرجت البوذية من رحمها[25]. كل دين يعتقد أنه الأفضل تجهيزا وإعدادا للأفراد للتصدي لهذه السموم، مهما اختلفت طرائق معالجتها.

رفضت الديانات الهندية رفضا جذريا المقاربة الإبراهيمية، التي توازن بين العيش في الدنيا والآخرة، وهي فكرة أكثر تطورا في المسيحية والإسلام مقارنة باليهودية. ففي الهندوسية، التي تجسد قدوة الديانات الهندية، ليس الموت (الحدث النهائي والذروي لحياة المؤمن في الديانات الإبراهيمية) سوى بداية لدورة أخرى من الولادة والولادة الجديدة (التناسخ). ومن ثم، تعد مقاربة الحياة المادية أقل إلحاحا وضرورة. إذ تقسم الهندوسية التقليدية حياة الفرد إلى أربع مراحل، تمتد كل منها قرابة عقدين من السنين: الطالب، صاحب البيت، الناسك، الباحث. المرحلتان الأخيرتان مندمجتان أحيانا، وينتظر من الرجل فيهما أن يتخلىبمصاحبة زوجته – عن جميع ممتلكاته المادية وينسحب من العالم ليعيش في الغابات والجبال باحثا عن الحقيقة. ولا تعود السموم تمثل تهديدا الآن، لأن الفرد يكتشف الترياق لحظة تخليه عن العالم المادي. مقاربة الديانات الهندية ليست جذابة فلسفيا فقط، بل مؤثرة في حياة الأفراد تجريبيا أيضا كما هو معتقد. ولربما تحتاج الديانات الإبراهيمية إلى التعلم منها عبر إمعان النظر في ميراثها الروحي والصوفي الغني.

لكن، لأغراض حجتنا الراهنة نحتاج إلى توكيد أن العولمة طاغية كاسحة، ولا يمكن لأي مجتمع –إبراهيمي أو هنديالنجاة من طوفانها الجارف.

تواجه المجتمعات الهندوسية والبوذية التحديات نفسها التي تواجهها المجتمعات الأخرى، كما يثبت عنف الأكثرية الهندوسية ضد المسلمين في الهند، ومعاملة الأغلبية البوذية للهندوس في سريلانكا. فهي أيضا تصارع السموم، على الرغم من الفلسفة الهندية القائمة على الانسحاب من العالم ونبذ العنف. لقد فوجئ أتباع الديانات الهندية بحجم وحدّة أعمال الشغب، لأنهم لم يتخيلوا يوما إمكانية حدوث مثل هذا العنف. ولا شك في أن العنف المتفجر بين الجماعات الدينية تلهبه وتغذيه التقانة، وصور وسائل الإعلام العالمية، والشبكات المتاحة للجماعات المحلية، التي هي جزء من عملية العولمة. إضافة إلى ذلك كله، هنالك جوانب ومظاهر أخرى للعولمة تؤثر في المجتمعات التي تنتشر فيها الديانات الهندية، مثل إضعاف بنى الدولة المركزية والقسوة المفرطة في ردها على ما اعتبرته علامات دالة على الانشقاق لدى الأقليات؛ واتصفت مجتمعات الأكثرية

والأقليــة الآن بسرعة استخــدام الأسلحة الفتاكــة المتوفرة لديها بسهولــة ضد الأهداف المدنيــة أو العسكريــة. ولذا، تعد حمامات الدم الاثنية والدينيــة سببا وعارضا في آن معا لآفات الغضب والكره والجهل التي تصيب المجتمعات في عصر العولمة الذي نعيش فيه.

الفلسفات الحديثة نسبيا، مثل القومية والاشتراكية والفاشية، التي نزعت إلى استبعاد الديانات التقليدية ورفضها بوصفها متخلفة وعتيقة تجاوزها الزمن، لم تتمكن هي أيضا من كبح جماح السموم. بل تسارع انتشارها تحت هيمنتها بواسطة قوة واستخدام التقانة. حتــى تلك التــي رفضت الدين برمتــه كثيرا ما حملت أفــكارا متحيزة، مثــل العنصرية، وفــرت التربة الخصبــة لانتشار السموم. وهنالك ما يكفي مــن الأدلة الدامغة التي تثبت أن ما يدعى بالمعلقين الليبراليين والانسانويين في الغرب استعرضوا ما لديهم من مشاعر الغضب والكره والجهل بالإسلام في أعقاب الحادي عشر من سبتمبر.

خلال نصف القرن الماضي، أفرزت العولمة عواقب مادية إضافة إلى تبعاتها الأخلاقية. وربمــا يكون أشدها خطورة تفشــي التصنيع والنزعة الاستهلاكية وما سببه من احتباس حراري. فالأعاصــير والعواصف المدمرة المتكررة، ودرجات الحــرارة التي بلغت معدلات قياسيــة، والأمطار التي تسبب الفيضانات، وسنوات القحط والجفاف، فضلا على ذوبان الجليــد المتســارع في القطب، تمثــل جميعا متلازمــات وأعراضا للمشكلــة[26]. وحتى في هــذه الحالة، تستمر جميع بلــدان العالم في اتباع مثال الدول الغربية، حيث تبدي البلدان الصناعية العملاقة في آسيا، مثل الصين، اهتماما أكبر بالانضمام إلى الاقتصاد المعولم مقارنة بحماية البيئة.

هنالــك عاقبة أخرى للعولمــة يمكن رؤيتهــا في المجال الاقتصــادي، ألا وهي التفاوت المتفاقم في الظروف المعيشية. الفقر يفتك بالآلاف كل سنة نتيجة نقص الرعاية الصحية والغــذاء؛ وهنالك زهاء مليــار شخص في العالم لا يزيد دخلهــم اليومي عن دولار واحد؛ في حــين تفوق الــثروة المالية لثلاثمئــة وثمانية وخمســين فردا ثروة نصــف سكان العالم مجتمعــ [27]. الإحصائيــات التــي تبعث على اليأس، مثــل أرقام التفاوت بــين الأغنياء والفقــراء، متوفــرة على أوسع نطــاق (انظر مثلا تقارير الأمم المتحــدة). ولمفاقمة حدة المشكلــة، قفــز عدد سكان العــالم من 2.5 مليار نسمــة قبل نصف قــرن، إلى 6.5 مليار

اليوم وسيبلغ 11 مليارا بحلول منتصف القرن الحالي[28]. لا يمكن تجاهل هذه النزعات الديمغرافيـة. إذ لـن تتمكن المـوارد الطبيعية للأرض من تلبية حاجـات الحياة البشرية دون اتخـاذ بعض الإجراءات القاسية للحد من زيادة عـدد السكان، إما بواسطة الجهد البشري أو بجهود أمنا الطبيعة.

سهلت العولمـة أيضا إمكانية الحصول على أدوات العنف، من القنابل المحلية الصنع إلى الأسلحة الجرثومية. ويمكن لأي شخص في أي زمان ومكان السقوط ضحية للكراهية الدينية أو العرقية. ولا بد من الاعتراف بأن المجتمعات واجهت مثل هذه الكراهية من قبل، فضـلا على المشكلات المذكورة آنفا -استغلال الموارد الطبيعية، الاهتمام المفرط في ركم الثروة المادية، ضغوط الأعداد الكبيرة من السكان - وكثيرا ما خاضت الحروب بسببها. إن حجـم ومدى العولمة اليوم، دون كوابح أو ضوابط أو توازن، هما اللذان يضعان الجنس البشري في مرحلة محفوفة بالخطر من تاريخه. فخيبة الأمل بوعد العولمة المأمول وأجراس الخطر التـي تدقها طبيعة ومدى العنف في أعقاب ذلك، جعلت المفكرين المهتمين يؤلفون كتبا حملت عناوين مثل "العالم يحترق"، و"قرن همجي: عودة إلى البربرية"[29].

تستجيـب الديانـات والمجتمعات كلها إلى المشكلات التي تبلـغ ذروتها في أزمة العولمة بطـرق شتـى، حتى إن بعضها يتجاهلهـا كلية. ومثلما يحدث في العـالم الإسلامي، يمكن رؤيـة ردود الفعل العدائية في أمريـكا اللاتينية مثلا، حيث اكتسحت الحكومات اليسارية السلطة في فنزويلا وبوليفيا والإكوادور. كذلك الصين -التي يراوح عدد السكان المسلمين فيها بين 20 مليونا (التقدير الرسمي) ومئة مليون - حيث انتشر الظلم الاقتصادي على نطـاق واسع، وأدت سياسات الخصخصة إلى انـدلاع آلاف الاحتجاجات وأعمال الشغب وغيرها من أشكال الاضطراب الاجتماعي في السنوات الأخيرة[30]. ويوفر الإسلام، بؤرة هذه الدراسة، أرضا خصبة لاستقصاء التأثير والاستجابة للقوى المعولمة في سياق تقليدي على الأغلب. فأتباعه منتشرون في مختلف أرجاء العالم وفي أوضاع اثنية مختلفة وبارزة. ويمكن لمسلكهم أن يلقي مزيدا من الضوء على المجتمعات التقليدية ويساعد على تحسين العلاقـات بينها وبين المجتمعات الصناعية. والأهم ربما، أنـه يساعد الآخرين على فهم أفضل للإسلام الذي أصبح يحظى بأهمية عالمية.

أنماط المجتمع الإسلامي القديمة والجديدة

قبل الانطلاق في رحلتنا توقعت أن أعتمد على تصنيفات ماكس فيبر الكلاسيكية للزعامة - سلطة كاريزمية (آسرة)، وتقليدية، وعقلانية/ قانونية - لتحديد أساليب الزعامة القيادية في العالم الإسلامي. الزعامة الكاريزمية متجذرة في النزعات الشخصية التي تجذب الأتباع لكنها ليست بالضرورة جزءا دائما من شخصية الفرد. وفي الحقيقة، لا تكمن الكاريزما إلا في العيون المنومة للأتباع الخاضعين المستسلمين. وبذلك فهي خصيصة غامضة وتقويمها عملية ذاتية، لأن الزعيم الكاريزمي في نظر شخص قد يكون شريرا في نظر آخر. والواضح أن هناك تعالقا بين النجاح والمستويات المرتفعة من الكاريزما، من ناحية، وبين الفشل وانحدارها من ناحية أخرى. وبالمقابل، لا تجمع الفئتان التاليتان من الزعامة سوى علاقة واهية بالصفات والسمات الشخصية. فالسلطة المرجعية التقليدية نتاج السلالة والولادة. وقد يتمتع الفرد في بعض أنواع المجتمعات بدور قيادي لأنه الولد البكر، أو وارث ملك أبيه أو تركته. أما السلطة العقلانية -القانونية فهي بنية اجتماعية ارتقت في أوروبا نتيجة حاجة المجتمع إلى فرض القواعد والأنظمة لضبط المسؤولين المنتخبين الذين يحكمون السكان. وتعد هذه أفضل أنواع السلطة نظرا لأنها بيروقراطية ومنظمة ومن ثم "منضبطة".

تعد تصنيفات فيبر ممتازة كنظرية تأسيسية. لكن ما إن وصلتُ إلى العالم الإسلامي حتى أدركت أن العلاقات بينه وبين الولايات المتحدة، والأحداث التي لم تتكشف بعد منذ الحادي عشر من سبتمبر، وعمليات العولمة، أثرت في الزعامة الإسلامية تأثيرا نافذا بحيث ثبت أن تصنيفات فيبر ليست كافية. "المتمردون" الذين يلفهم الغموض والسرية مجرد مثال لا يناسب خطة وتصنيفات فيبر. فنظرا لعدم وجود هوية ملموسة أو متعينة، فإن هؤلاء يظلون خارج الفئات الثلاث. وعلى أية حال، يمكن تصنيف العديد من الزعماء والقادة المسلمين ضمن اثنتين أو ثلاث من الفئات التي تحدث عنها فيبر، وهذا ما يجعل من الصعب شرح وتفسير الزعامة الإسلامية بواسطة هذا الإطار المفهومي. إذ يمكن تصنيف الملك الأردني الراحل، حسين، في فئة الزعيم الكاريزمي والتقليدي وحتى العقلاني – القانوني؛ فقد كان ملهما لشعبه، ومتحدرا من نسل النبي، ويعمل مع برلمان صدّق وأجاز الملكية.

بغض النظر عن ماكس فيبر، اعتمدت على / ووسعت حجج غيره من علماء الاجتماع البارزين، مثل ابن خلدون واميل دوركهايم. تفترض نظرية ابن خلدون أن لنهوض وسقوط الأسر المالكة علاقة بفقدان الحيوية الاجتماعية والتلاحم الاجتماعي لا بالمشيئة الإلهية. في حين يفسر دوركهايم مستويات ومعدلات حالات الانتحار في المجتمع مثلا بوصفها تعبيرا عن الانهيار الاجتماعي ولا علاقة لها بالغضب الإلهي أو الدناءة الأخلاقية. وتوضح مناقشة فيبر لأخلاقيات العمل البروتستانتية كيف يمكن للسلوك الديني أن يؤثر في روح الرأسمالية، ومن ثم يحسن النمو الاقتصادي. ولا ريب في أن الأعمال المتراكمة لهؤلاء المفكرين تؤدي إلى نتيجة ختامية واسعة تشير إلى تعذر فهم كيف يرى البشر المقدس ويتصلون به دون فهم المجتمع ذاته. إذن، يقرر علم الاجتماع نوع اللاهوت الذي يصوغه المجتمع ويمارسه.

يعد دوركهايم وفيبر من أعظم علماء الاجتماع الأوروبيين البارزين في القرنين التاسع عشر والعشرين. وتلك حقبة من الجيشان الفكري أنتجت دفعة واحدة مشهودة من المفكرين مثل ماركس وفرويد وتولستوي وهـ. ج. ويلز، واينشتاين. وبالمقابل، يعد ابن خلدون شخصية فريدة، من حيث أنه ظهر من بلدة نائية ومغمورة في شمال أفريقيا ولم يترك مدارس أو مذاهب فكرية أو جيشا من التلاميذ والأتباع. فهو حالة متفردة، قوة فكرية دافعة وحيدة ما زالت حتى اليوم تدهش وتذهل الباحثين في شتى أرجاء العالم.

درست عدة سنين - وكتبت عن - نماذج الزعامة في المجتمع الإسلامي كي أقترح كيفية تغييرها وتوجيهها نحو مستقبل أفضل. في كتابي "الإسلام تحت الحصار"، قمت باستكشاف فئتين اثنتين: الاستيعابية والاستبعادية[31]. محمد علي جناح، مؤسس باكستان، يمثل الأولى، والطالبان (الأفغان) يمثلون الثانية. وقبل ذلك، عملت على تحديد نزعتين جامعتين مستمرتين في المجتمع الإسلامي: الأولى روحانية وعالمية والثانية متزمتة وحرفية / نصية[32]. دارا شيكوه، الابن البكر لشاه جيهان، إمبراطور الهند المغولي، يجسد الأولى، ويجسد الثانية شقيقه الأصغر، اورانغزيب. وأدخلت في هذا الكتاب مزيدا من التطوير على هذه الأفكار.

الغرض الأساسي من هذه الدراسة هو تقرير كيف يبني المسلمون هوياتهم الدينيةومن ثـم، سلسلة كاملة من الأفعـال والأعمال والاستراتيجياتنتيجـة لوضعهم الراهن. اليوم، يعد كل عمل عنيف في أي جزء من العالم قادرا على تحريض واستفزاز ردة فعل عنيفة في غـيره. أما القوة المحفزة الرئيسة فهي بث الصور على شاشات التلفزيون والإنترنت التي توجد إحساسا متعاظما بالتوتر. وتضمن سرعة الاستجابات وردود الأفعال وما يصاحبها مـن دعايـة وذيوع في وسائل الإعلام أن يبقى كل مجتمع في حالة من القلق الشديد، حيث يحاصر الناس العاديـون في إسار هذه السلسلة المتسارعة من الأفعال وردود الأفعال عبر أجهـزة التلفزيـون. فظهرت أنواع معينـة من القـادة والزعماء لتمثيل الحالـة المزاجية السائدة حاليا، في حين همش غيرهم. أما أسلوب القيادة فيتصل اتصالا واضحا بسرعة تقديم الأفعال وردود الأفعال.

تسعـى ديانات العالم كلها لاكتشاف أفضل سبيل لفهـم المقدس للعيش عيشة راضية علـى الأرض. وفي هذا المسعـى، يحاول بعض النـاس البحث عن التوازنـات والتشابهات خـارج نطاق تراثهـم؛ في حين يحـاول بعضهم الآخر دمـج المبادئ المأخـوذة من الحياة المحيطـة بهم لتعزيز وتقوية معتقداتهـم؛ ويركز غيرهم بؤرة الاهتمام على الحفاظ على ميراثهـم بقدر الإمـكان. تؤدي هذه المقاربـات المختلفة إلى ظهـور تناقضات ومعضلات داخلية ضن ديانات العالم الكبرى، وتؤثر أيضا في العلاقات بالأديان الأخرى. لنأخذ على سبيـل المثال اليهودية، أقدم ديانـة إبراهيمية. إذ استطاعت حـل توتراتها الداخلية إلى حـد ما عبر تعريف وتحديد تخـوم وجهات النظر المختلفة ضمن ثلاثـة فروع: الإصلاح، والتزمت الأرثوذكسي، والمحافظـة. وهناك بالطبع تفسيرات أخرى تعرضها فروع أصغر مثـل الهاسيديم وإعادة البنـاء. ويؤمن أتبـاع المعتقدين بأنهم يفسـرون اليهودية بأمانة وصدق[33].

وعلى نحو مشابه، يحاول الإسلام تمييز مختلف مقارباته أو وجهات نظره للعالم، حيث أن بعضها يتداخل وبعضها الآخر يتضارب. ويمكن تلخيص هذه المقاربات على أفضل وجه بوصفها "قبولا" و"محافظة" و"تركيبـا" توليفيا. فأولئك الذين يؤمنون بالقبول يقاربون المقدس عـبر الصوفية الروحانية الشمولية؛ والذين يؤمنـون بالمحافظة يختارون طريقة

التشدد المتزمت والتفسير الحرفي للدين؛ في حين يسعى أتباع التركيب والتجميع والتوليف إلى التفاعل مع الحداثة والقيم التي تثمنها وتقدرها، مثل الديمقراطية وحقوق المرأة وحقوق الإنسان. مرة أخرى نقول إن كل منظور يعده أتباعه أصدق وأنقى صيغة للإيمان الديني ووسيلة لمواجهة ومعالجة وتوقي السموم الثلاثة، ومتأثرا بالعولمة، ويسبب توترات داخلية ضمن المجتمع الإسلامي. من هنا، تأخذ ردة فعل الإسلام على قوى العولمة ثلاث صيغ مميزة على أقل تقدير: الروحانيون (المتصوفة) يريدون توسيع ووصل معتقداتهم الدينية مع معتقدات غيرهم، والمحافظون التقليديون يريدون الحفاظ على نقاء الإسلام، والحداثيون يحاولون موالفة المجتمع مع الأنظمة الأخرى غير الإسلامية. ولأن معظم الناس في الغرب لا يفهمون تعقيد المجتمع الإسلامي عبر نماذج كنماذجنا، فهم يختزلون علاقات الولايات المتحدة بالعالم الإسلامي في مجرد صراع الخير مع الشر، ويقسمون المسلمين بطريقة فجة إلى معتدلين إزاء متطرفين.

النماذج الإسلامية الثلاثة الفاعلة اليوم

هناك ثلاث بلدات في الهند تجسد وجهات النظر هذه من العالم: أجمر وديوباند وعليكره. ومثلما كانت واترلو أكثر من مجرد موقع مكاني في أوروبا، كذلك تمثل أسماء هذه البلدات الثلاث تفسيرات مختلفة للإسلام في عقول وأذهان الناس المحليين المرتبطين بمنظور إسلامي محدد. أما حقيقة كون البلدات الثلاث تقع في جنوب آسيا – وفي الهند تحديدا – فمجرد مصادفة تاريخية وجغرافية. والنقطة المهمة أن النماذج المسماة تبعا لها يمكن تمييزها في جميع المجتمعات الإسلامية في العالم، على الرغم من أنها تتنكر أحيانا بأسماء وأشكال مختلفة.

تقتنص كلمة "نموذج" مدلول "نظام أو منظومة" أو أسلوب تفكير، مع أنها غامضة وغير محددة المعالم نوعا ما في هذا السياق. فإن وجد نموذج روحاني باطني للفكر والممارسة في الإسلام فهو الصوفية. ومن ثم فإن أولئك الذين يحبون ويتبعون معين الدين تشيستي، مؤسس الطريقة التي حملت اسمه ويقع مقامه في بلدة أجمر، يعدون جلال الدين الرومي المدفون في قونيا بتركيا شيخا ومعلما صوفيا ملهما ومحبوبا. جميع المتصوفة يستمدون إلهامهم من النبي مباشرة ويرونه من منظور روحاني:

يقـال إنه حين كان الله موجودا ولا شيء سواه تردد صدى الصمت المطبق في جنبات العتمـة قبل أن يخلق النور، وانغمس الوجود كلـه في كل واحد متفرد وحيد، بعد حقبة من اللازمـن لا يمكـن وصفها ولا حسابها، حدث شيء ما، شيء تغـير أو تحرك وبرز حضور مذهـل بـراق. تأمل الله دهشا من هذا الضـوء الذي يشع وعيـه كإدراك، وسأله من هو، فأجـاب النـور إنه ضوء كان معه تعالى وأتى منه، ضـوء كان تعبيرا عن فضل الله ونعمته وكليتـه. وأعطـى الله تعالى بعد أن سره الجـواب هذا الضوء اسم نور محمـد وأعلن أنه سيخلق كل شيء بهذا النور، نور محمد[34].

النبـي يشـع نـورا ويجسد النور: "نـور محمد". وهذا مـا يميز البشر منـذ آدم: "في الختـام، خلـق آدم، إنسانـا، أسمـى مخلوقاته ووسم نـور محمد على جبينـه، وأعلن أن الإنسـان سيعلم ما لن تعلمه حتى الملائكة"[35]. في نظر الصوفي، يمتزج النبي والإسلام والصوفيـة في كل واحد ويشع من الله الخـير والصلاح والتراحم. هكذا يعرف أحد كبار المتصوفة المعاصرين الصوفية:

لا يمكن فصل الصوفية عن الإسلام مثلما لا يمكن فصل أعلى درجات الوعي أو اليقظة عنـه. فالإسـلام ليس ظاهرة تاريخية بـدأت قبل 1400 سنـة. إنه فن الإيقـاظ والانتباه بواسطة الخضوع. الصوفية هي قلب الإسلام. قديمة العهد مثل انبثاق الوعي البشري.

والمتصوفـة الصادقون متشابهـون في الجوهر من أين أتوا، ويتشاركون في نور ويقظة داخليـة ودماثـة خارجية ورغبة في خدمـة البشرية. أما الفوارق الظاهـرة بين المتصوفة فتتصل بالشؤون المتعلقة بالممارسات أو الوصفات الروحية لتنقية القلوب. والثمار الطيبة للصوفية متشابهة. الأشجار وحدها تبدو متباينة وتزهر في مواسم مختلفة[36].

يتعـدد أتباع هذا النموذج، بدءا بالروحانيين المتطهرين المتقشفين، وانتهاء بالمدمنين على المخدرات وحتى المسكرات، وهي محرمة في الإسلام. و"مثلما هي الحال في الحركات الروحانيـة والإحيائيـة الأخرى، نجد أيضـا أمثلة على بعض المتصوفـة المتطرفين وحتى الذيـن يشوهون الأبعاد المتعددة للإسلام. فالإفـراط في الغموض والسرية أو رفض قيود السلـوك الخارجي أو الطريقة النبوية المتوازنـة، مجرد أمثلة على هذه الظاهرة، مع أنها تمثل الاستثناء لا القاعدة"[37].

خـلال الحرب العالمية الثانيـة، أنقذت الجماعات الصوفيـة المحلية في البلقان حياة الكثـير من اليهود من الاضطهاد النـازي. فقد قيل لنورمان غيرشمان، الكاتب الأمريكي الـذي يتناول هذه الحقبة المجهولة تقريبا من التاريخ، إن ذلك يعد "عملا دينيا إيمانيا" لطائفـة البكتاشـي المسلمة في ألبانيـا[38]. وفي مقابلـة مع غيرشمان، شـرح زعيم هذه الطائفـة قائـلا: "نحن نرى الله في كل مـكان وفي كل شخص. الله موجود في كل سم وكل خليـة. لذلك فكلنا عيال الله. لا يوجد كفـرة. ولا تمييز. فمن يرى وجها جميلا يرى وجه الله. (الله هو الجمال، والجمال هو الله. لا إله إلا الله)".

أستخـدم في فصول هذا الكتاب كلمـة "أجمر" للإشارة إلى أولئـك المسلمين الذين يستمدون إلهامهم من التراث الصوفي والروحاني داخل الإسلام. في حين أستخدم كلمة "ديوباند" لأشير إلى التيار الغالب من الحركات الإسلامية جميعا - الوهابية أو الإخوان المسلمـون وحماسـ في الشـرق الأوسط - التي ترتبـط ارتباطا عميقـا بموقعها. بكلمات أخـرى، تعد ديوبانـد تعبيرا جامعا للحركات الإسلامية الأصوليـة المؤسسة على التفسير المتشـدد للإسـلام وتتبع نظرتها إلى العالم التراث الإسلامـي والفكر الإسلامي الغالب. وهـي تعرف هويتها وتحـدد ذاتها عبر ارتباطهـا ببعض المفكرين والفقهـاء الإسلاميين البارزيـن - مثل ابـن تيميه وسيد قطب (في العـالم العربي) وأبي الأعلـى المودودي (في جنوب آسيا). ويعد الكثيرون من أتباع مدرسة ديوباند اورانغزيب، الإمبراطور المغولي في الهند، الحاكم المسلم المثالي.

عاش ابـن تيميه، أحد أهم المفكريـن الإسلاميين وأشدهم تأثـيرا ونفوذا، وكتب في القـرن الرابـع عشر، حـين كان مركـز العالم الإسلامـي يترنح تحت غـزوات المغول من الشرق، وقبـل ذلك هجمات الصليبيين من الغرب. أما عدم اليقين والعنف اللذان أعقبا هـذه الغزوات فقـد تركا أثرا في تفكير ابن تيميه، ولذلك يجب فهمه في سياق عصره. إذ غابـت آنذاك فكرة قبول غير المسلمـين، خصوصا اليهود والنصارى، بالسهولة والانفتاح اللذيـن تحدث عنهما ابن رشـد أو حتى جلال الدين الرومي. لكن بقـي ابن تيميه، رغم ارتيابه في غير المسلمين، فقيها إسلاميا أصر بإلحاح على الحرية الدينية والأمان لليهود والنصارى وفقا لتعاليم القرآن.

تتمثل أهمية ابن تيميه اليوم في حقيقة أنه أدخل موضوعين اثنين في الخطاب الإسلامي تركا أثرا لا يمحى في المجتمعات الإسلامية. أولا، رفض رفضا قاطعا مبدأ الجبر أو الإذعان والخضوع والسلبية أمام الظلم والاعتماد على شفاعة الأولياء، وشدد بدلا من ذلك على المسؤولية الشخصية عن حياة الفرد. ثانيا، أكد الحاجة إلى إبقاء الشريعة الإسلامية على أكبر قدر من المرونة ضمن مفهوم الاجتهاد. وقدم الحجة على أن الشريعة مفتوحة أمام إعادة التفسير وتحتاج إلى أخذ السياق الذي يعمل فيه المجتمع بعين الاعتبار. وقال إن الاجتهاد يجب أن يظل ناشطا وفاعلا وإلا سوف تتحجر الشريعة نفسها وتفقد صلتها بالواقع. وعارض معارضة شديدة الفكرة الواسعة الانتشار - التي ما تزال تتردد في الأوساط المغالية في المحافظة والتزمت - القائلة إن باب الاجتهاد قد أغلق إلى الأبد بالمذاهب السنية الأربعة. وبرأي ابن تيميه، يجب على المسلمين في كل جيل العودة باستمرار إلى المصادر الأصلية في (القرن السابع الميلادي) بدلا من تطبيق تعاليم الفقهاء والعلماء دون تفكير وذلك مهما كانوا تقاة وأجلاء. أما فشل الاجتهاد كما يحاجج ابن تيميه فيعني فقدان الحيوية في المجتمع المسلم، ومن ثم فهو يمهد السبيل لسقوطه وانهياره.

تردد صدى الدعوة إلى الاجتهاد في القرن الثامن عشر على يد محمد بن عبد الوهاب، مؤسس ما بات يعرف بالحركة الوهابية. فقد فسر ابن الوهاب ابن تيميه بأسلوب أكثر نصية وحرفية مقارنة بما قد يرغب به ابن تيميه نفسه. ورفض الوهابيون على وجه الخصوص، وقد استمدوا أدلتهم من محمد بن عبد الوهاب، التفكير والممارسة الصوفية وفضلوا الارتباط الجريء بما هو نقي في الإسلام الأصيل (في القرن السابع الميلادي). ويقدم بعض الفقهاء المتشددين - على الرغم من تحريم القرآن الصريح للانتحار - الحجة والدليل على أن التفجيرات الانتحارية التي تفتك بالمدنيين الأبرياء مبررة وجائزة، لأن المسلمين يتعرضون لحرب هجومية شاملة تستهدف دينهم ويسقط فيها مدنيون أبرياء منهم أيضا. وعدّوا هذا النوع من المنطق اجتهادا.

ألهم ابن تيميه شريحة عريضة من الفقهاء والمفكرين المسلمين مثل سيد قطب وأبي الأعلى المودودي، والمذاهب الفكرية، مثل مدرسة ديوبند، والناشطين الجهاديين من

أمثال بن لادن، وقادة الإخوان المسلمين. اليوم، اختزلت رسالة ابن تيميه في ركنين اثنين: الحاجة إلى الجهاد دفاعا عن الإسلام، وفي الوقت ذاته السعي لإعادة النقاء والصفاء المميزين للمجتمع الإسلامي في صدر الإسلام. هذا هو تفسير الإسلام الذي يصفه المعلقون الغربيون بأنه "الإسلام الراديكالي" أو "الإسلام السياسي"، أو "الجهادي" أو حتى "الفاشية الإسلامية" وهي تعابير نحتت حديثا. واختزلت أفكار ابن تيميه المعقدة إلى مبدأ قديم، وشعار للحشد، وصيحة حرب غدت شرعة وميثاق عمل لملايين المسلمين في شتى أنحاء العالم.

لكن لن يوافق جميع أتباع مدرسة ديوباند أو يقبلوا أساليب بن لادن. ومعظمهم يرغبون في مجرد الاحتفاظ بمثلهم وممارساتهم سليمة دون تدخل خارجي، خصوصا من الغرب، لكنهم لا يؤيدون العنف بالضرورة. هنالك مجموعة من الآراء والأساليب المتعلقة بأفضل السبل للدفاع عن التراث في نموذج ديوباند. وفي هذه المناقشة، إذن، ينقل تعبير "نموذج ديوباند" سلسلة من استجابات وردود أفعال المسلمين المتشابهة عموما في الغرض والمضمون، على الرغم من تنويعاتها الناجمة عن الثقافة والمنطقة والقناعات الشخصية.

على شاكلة أجمر وديوباند، تنقل كلمة "عليكره" في هذا الكتاب ردة فعل حداثية عريضة لكن مميزة للمسلمين تجاه العالم. ظهر هذا الفرع في القرن التاسع عشر كعاقبة مباشرة لهجمة الإمبريالية الغربية. وشمل تشكيلة واسعة من المؤيدين بدءا بالسير سيد أحمد خان في الهند ومحمد عبده في مصر في القرن التاسع عشر، مرورا بالزعماء والقادة الاشتراكيين في الشرق الأوسط، وانتهاء بدعاة التحديث مثل شاه إيران محمد رضا بهلوي والزعماء الديمقراطيين في ماليزيا في القرن العشرين. ويضم زعماء هذا الاتجاه أيضا ديمقراطيين حقيقيين وديكتاتوريين عسكريين - جميعهم اعتنقوا الديمقراطية. ويتقاسم أتباع مدرسة عليكره، بغض النظر هل كانوا متدينين متحمسين أم أكثر ميلا إلى العلمانية، الرغبة في تبني الأفكار الحديثة مع الحفاظ على ما هو جوهري وأصيل في الإسلام.

يجب على المسلم العمل لدنياه كأنه يعيش أبدا والعمل لآخرته كأنه يموت غدا - ومن المفيد تذكر التعريف التقليدي للإسلام المثالي بوصفه تحقيقا لتوازن كامل بين العالمين،

الديـن والدنيـا، أو بين الروحانية الأخرويـة والمادية الدنيوية. ويمكن القـول إن النماذج الثلاثـة مجرد محـاولات لتحقيق هـذا التـوازن بالضبـط، رغم الاختـلاف الظاهر في الاستراتيجيـات. وفي كل حالة، يجد المسلمون للعثور على واسطة تحقق السعادة والتوازن بـين السوق والمسجد. أما المشكلة فتكمن كمـا سيتضح لنا في أن كل نموذج يركز اهتماما أكـبر على أحدهما، وهـذا ما يخل بالتـوازن الدقيق الذي جهد الإسـلام بدأب للحفاظ عليـه. إذن، في حين قـد يمضي أتباع نموذج أجمر وقتا أطول في التفكير بالآخرة وتجاهل الحيـاة الدنيا، فـإن أولئك الذين يفضلون نمـوذج عليكره يعملون العكـس. ويعتقد أتباع مدرسـة ديوباند الواثقـون بأنها حامي الدين الأصيل، أنهـا أقامت التوازن الصحيح بين الدين والدنيا.

وتوفر النماذج الموصوفة آنفا منظورا لرؤية ردود أفعال المسلمين تجاه بعضهم بعضا. وهذه إحدى مزايا تصنيف الشرائح السكانية الكبيرة والمعقدة ضمن نماذج وفئات. على سبيل المثال، يعتقد أتباع نموذج أجمر أن أتباع ديوباند يغالون في انتقاد الديانات الأخرى، والانشغال بمعارضة الروحانية، في حين يجدون أتباع عليكره مبالغين في الاهتمام بالعالم المادي. ومن جانبهم، يعد أتباع ديوباند أتباع أجمر مذنبين بالبدع والاقتراب من الهرطقة، وأتبـاع عليكره بالغلو في العلمانية وفرط التأثر بالغـرب. ولربما تعد جماعة عليكره أتباع أجمـر متخلفين وترفض أتباع ديوباند بوصفهم عصبة غوغائية من رجال الدين الجهلة، والقرويـين السذج، والمتخلفـين الظلاميين. كان الرئيـس الباكستاني أيـوب خان، الذي درس في عليكره ووصل إلى سدة السلطة بانقلاب عسكري، يشير علنا إلى أتباع ديوباند بوصفهـم "هؤلاء الملالي الملاعين". أما محمد علي جناح، فيعد طلاب عليكره (رغم أنه لم يدرس فيها)، "ترسانة" للمسلمين في حملته من أجل إقامة وطن مسلم حديث سيدعى باكستان، وتعرض هو نفسه للهجوم من قبل رجال الدين باعتباره "ملحدا".

لكـن هـذه ليست نماذج محكمة وكتيمـة إذا جاز التعبير بل "أنمـاط مثالية" تقترب مـن الواقع الحقيقي ولا تمثلـه، وتلك واحدة من نقائص وعقبـات تصنيف الناس ضمن مجموعـات خاصة. فالفئـات التصنيفيـة ليست بديلا عـن الواقع. ففي بعض الأحيان تتداخـل النماذج وتتشابك، وفي أحيان أخرى ينتقل الأفراد من أحدها إلى الآخر. فضلا

علـى ذلك كله، سعى بعض المفكريـن الإسلاميين لعقد مصالحة بين النماذج الثلاثة. في القرن الحادي عشر درس الإمام الغزالي حين كان معلما في إحدى جامعات بغداد، الفكر الصـوفي والإسلام النصي والفلسفة اليونانية - التي تحدرت منها نماذج أجمر وديوباند وعليكـره. وبعـد أن اشتهـر في الأوسـاط العلميـة، انسحب الغـزالي من المجتمـع ليعالج الاتجاهات الفكرية الرئيسة في عصره وعاد بسلسلة من الأعمال المؤثرة التي تقيم توازنا بـين الروحانية الصوفيـة والإيمان والعقلانية. ورجع المفكـرون المسلمون على مر القرون إلى أعمال الغزالي ليستمدوا الإلهام ويحصلوا على العون لمواجهة تحديات الحياة. وليس مـن المفاجئ أن يرشح العديـد ممن قابلناهم طوال رحلاتنا الإمـام الغزالي قدوة لهم. لكـن، وبسبـب تعقيد فكره الطمـوح، ظل يتعرض باستمرار إلى سوء الفهـم والخطأ في الاقتباس.

هنالـك مفكر آخر والفت أعمالـه الآراء المختلفة والمتعارضة غالبـا التي تمثلها هذه النمـاذج الثلاثـة، هـو الشاعـر والفيلسوف محمـد إقبال، الـذي أثر في عـدد كبير من المسلمـين العاديـين. ففي معرض إعجابه غـير المحدود بالشاعر والصـوفي جلال الدين الرومـي (1207-1273م)، بـدا أنـه يؤيد نموذج أجمـر، لكن قصائـده الشهيرة مثل "شكوى" (المسلمين لله على ما يصيبهم من محن وبلايا)، و"جواب الشكوى" (من الله تعالى)، تجسد نظرة أتباع ديوباند إلى العالم. أما الرسائل التي كتبها في الأشهر الأخيرة مـن حياته إلى محمد علي جناح، الذي كان أفضل رمز لنموذج عليكره، فقد طورت فكرة إقامة دولة إسلامية حديثة تسمى باكستان التي تعني "أرض النقاء". ولا يعد شعر إقبال في نظـر المسلمين متناقضا بـل تمظهرا لصراع الأفكار في المجتمـع البشري. وتأكدت لي شهـرة إقبـال العالمية حين أشار مـن قابلناهم طوال رحلتنا إليـه بوصفه نموذجا جديرا بـأن يحتذى مثالـه. في حين توضحت قـدرة الشاعر على عبور واخـتراق الحدود اللغوية والثقافية والعالمية خلال توقفنا في دمشق، وذلك في حفل عشاء أقامه السفير الباكستاني تكريما لنا: فقد تلا أحد السوريين، محمد حبش، نسخة بالعربية لقصيدتين من قصائد محمـد إقبال. وكانت حماسته في الإلقاء ظاهرة للعيـان مما أدخل السرور والبهجة على نفوس الحاضرين.

تستمد النماذج الثلاثة، على تناقضها الظاهر، إلهامها من اسم يوفر الوحدة للمجتمعات الإسلامية المتنوعة على امتداد العالم: النبي. فهو يحظى بقدر من الإجلال إلى حد أن المسلمين يتبعون اسمه كلما ذكر بعبارة "صلى الله عليه وسلم". في إحدى قصيدتي محمد إقبال المذكورتين آنفا، ينصح الله المسلمين بالقول:

إن كنتم مخلصين لمحمد فأنا لكم

لم تريدون هذا الكون؟

سأعطيكم مفتاح المعرفة ذاتها

يتطلع المسلمون في كل مكان، بغض النظر عن عرقهم أو عمرهم أو طبقتهم الاجتماعية أو جنسهم أو مذهبهم، إلى النبي بطريقة خاصة. فهو مصدر إلهام لهم في الحياة.

تعبر شعبية النبي الكاسحة عن مفارقة وقوة في الإسلام في آن: المتصوفة في أجمر ينشدون المدائح في حب النبي ويربطون سلالتهم الروحية به؛ والمتزمتون النصيون في ديوباند يعدونه مثلهم الأعلى المطلق، ويقلدون سنته (حتى في عف اللحى وطول الثوب)؛ والتحديثيون في عليكره يستشهدون به بكل فخر واعتزاز بوصفه الثوري الأصيل في التاريخ الذي منح الحقوق للمرأة والأقليات والمحرومين. والكل متفقون على أن النبي أفضل مفسر للقرآن والإسلام. وأحاديثه المعبرة توفر الوحدة التي تربط فروع الإسلام الثقافية والسياسية المتنوعة خصوصا في مواجهة أي تهديد مشترك.

يعد الكثير من المعلقين الغربيين أتباع نموذجي أجمر وعليكره "معنا"، في حين أن أتباع نموذج ديوباند "ضدنا". لكن إذا كان للسؤال المتكرر: "أين هم المعتدلون؟" أي معنى دلالي فهو أن هؤلاء برأيهم قد غابوا عن النظر. وآمل، عبر إظهار تعقيد وتنوع وتلون العالم الإسلامي، اقتراح طرق وأساليب يستخدمها الغرب لفهم المجتمع الإسلامي.

فضلا على ذلك كله، تسلط هذه النماذج الضوء "عليهم" في الحرب على الإرهاب، وتوضح أن البلاد الإسلامية لا تناسب بالضبط هذا النموذج أو ذاك. أفغانستان، حيث عاود الطالبان الظهور ويقاتل المتمردون باسم قبائل البشتون – الجنود الأمريكيين وقبائل

الشمال، تجسد مثالا رئيسا على تناغم النماذج الثلاثة. فقد عرف الأفغان بحبهم للأدب الروحاني الصوفي – فهي مسقط رأس جلال الدين الرومي – لكنهم أيدوا أيضا نموذج ديوباند خلال حكم الطالبان، خصوصا أهالي قندهار وكابول. أما الشكل الرئاسي الراهن للحكم، مع جيش وطني وقوة شرطة جديدة، فيميل نحو نموذج عليكره. لكن ما يزال الوقت مبكرا لتبني نموذج عليكره، وهنالك أدلة واضحة على قوة ونفوذ نموذج ديوباند. ويمكن أيضا رؤية تداخل تفاعلي بين النماذج الثلاثة في مجتمعات إسلامية أخرى، مثل الصومال. ومن المهم عدم الاكتفاء بتحديد وتعريف هذه النماذج فقط، بل وصلها بعضها ببعض وبالمناقشات النظرية الواسعة عن الزعامة والقيادة. فصلتها الوثيقة ليست تاريخية ونظرية فحسب بل تحظى بأهمية سوسيولوجية مباشرة لأي مناقشة تتناول الإسلام المعاصر.

يمكننا بمساعدة هذه النماذج أن نقدر بدرجة أفضل كيف يرى التيار الغالب من المسلمين نفسه. يعد نموذج أجمر مناقضا بنيويا وإيديولوجيا وفلسفيا، للفلسفات المادية والاستهلاكية القوية الكامنة خلف العولمة. فالمتصوفة – من السنة والشيعة على حد سواء – يشددون على هموم الإنسانية المشتركة، والفقر، وضرورة التراحم والتعاطف والإحسان. ويحث الفكر الصوفي الناس على التأمل المستمر بالآخرة وعدم التركيز كثيرا على الثروة أو الكسب المادي في الدنيا الزائلة. لذلك، يغيب الصوفيون عن النظر تقريبا في عصر العولمة، وإن ظلوا ناشطين. فهم ليسوا مستهلكين ولا مناصرين متحمسين بطريقة جسورة لأسلوبهم في التفكير، لكنهم يعرضون حلا أصيلا وطويل الأمد لبعض من المشكلات التي تواجه حضارة البشر جميعا. وربما يعد نموذج أجمر، الذي يجسد التعددية والقبول بالآخر المختلف، النموذج الوحيد الذي يمكن أن يقود المسلمين خارج الصراعات الاثنية والدينية والسياسية التي فرضتها العولمة عليهم وما زالوا مستمرين في تجاهل أخطارها.

لا يمكن فصل الدين عن العقل في رأي أتباع نموذج ديوباند. وهم يستشهدون بالعديد من الآيات القرآنية التي تؤكد وتدعو إلى استخدام الفكر والعقل. فكلمة علم هي ثاني أكثر الكلمات تكرارا في القرآن بعد كلمة الله. فقد ذكر تعالى، كما يقولون، إنه لا يوجد سمة

أعظـم من العقل. ولا يمكـن للمؤمن عبادة الله إلا باستخدام قدرته الكامنة على التفكير والتعقـل. ووفقا لأتباع المدرسة، كانت أيام الإسلام العظيمة نتيجة لزومية لامتزاج الدين والعقـل. حـين تميز علماء ومفكـرو الإسـلام وكان علمهم المعرفي رائـد التطور الفكري. أمـا الانهيار العـام للقوة والنفوذ السياسي خلال القرنـين الماضيين فيمكن مغالبته، كما يؤكـدون بالحجة، عبر إحياء الإسلام النقي الأصيل وإعادة نموذجه المبكر الذي أدى إلى انتصار المسلمين أساسا.

ولأن مدرسة ديوباند حافظت على "نقائها" عبر رسم الحدود حولها، فهي قادرة على حماية نفسها من موجات المد العارم للعولمة. ويمكنها بالمنطق والتساوق والإصرار والثبات أن تفضح وتقاوم خواء العولمة، ومماديتها الفظة، وصور الانحلال الأخلاقي المعروضة على شاشـات التلفزيون. لذلك، فهي تشـدد على التفوق الأخلاقي للإسلام وتسعى إلى إيجاد شعور بالفخر والاعتزاز اعتمادا على الهوية الإسلامية. وفي نظرها، لا يعد الغرب مفلسا أخلاقيـا فقط، بل عنيفا وساديا، خصوصا منـذ الحادي عشر من سبتمبر. وفضائح أبو غريـب تشهد على ذلك وتؤكد توقع حكماء المسلمـين وأوليائهم بأن الإسلام سينتصر في نهايـة المطـاف. وبدلا من تقـديم الاعتذارات، تركـب مدرسة ديوباند موجـة كاسحة في العالم الإسلامي، مع أنها قد تتخذ أشكالا واستجابات وردود أفعال مختلفة اختلافا بينا، بدءا بالتفجيرات الانتحارية، مرورا بالمشاركة في الانتخابات المحلية، وانتهاء بالمظاهرات والمسـيرات والمواكب في الشـوارع. ويبدو أن العولمة تحث وتحرض نموذج ديوباند أكثر من النموذجين الآخرين، وتدفعه إلى أداء دور أشد نشاطا وفاعلية في المجتمع الإسلامي.

يبـدو نموذج عليكـره على السطح أكثر تناغما مع المفـردات والمصطلحات والمفاهيم الغربية الحديثة مثل الديمقراطية والعقل والتقدم والعلم، مقارنة بالنموذجين الآخرين. ووفقا لشخصيات جوهرية بارزة في هذا النموذج، مثل السير سيد أحمد خان (في جنوب آسيـا) ومحمد عبـده (في الشـرق الأوسط)، يعني الإسـلام -بالتعريـف- التوازن بين الإيمـان والعقـل. وأمل هؤلاء أن يحقق المجتمـع الإسلامي توليفـة تركيبية تجمع التراث (الإسلامـي) والحداثـة (الغربية). بعض المسلمين يؤيدون الفصـل الكامل الناجز بين الديـن والدولـة، كما حدث في تركيا في حقبـة كمال أتاتورك. وفي الحقيقـة، بلغت تركيا

حـد البدء برفض صيغ عديدة من الإسلام. لكن وعود المنجزات القومية، والديمقراطية الحقيقية، والتقدم الاقتصادي للجميع لم تتحقق فعلا على أرض الواقع. ولم تعتنق غالبية البلـدان الإسلامية ديمقراطية حقيقية ولم تحقق تقدما اقتصاديا دائما وواسع النطاق. وبـدلا من ذلـك، تعرضت تجارب هـذا النموذج للتطويـق والحصار مـن أنظمة الحكم الديكتاتوريـة، أو غرقـت - كما حـدث في أفغانستان والعراق - في بحـر من الاضطراب الفوضـى، وعدت مجرد محاكاة رديئة وهزيلة للغـرب لم تعط أي ثمار. ويواجه المسلمون من أتباع هذا النموذج خطر خسارة الدين دون الفوز بالعقل.

أكـدت رحلاتنا في العالم الإسلامي أن المسلمين يعرفون أنفسهم وفقا لهذه النماذج. فأولئك الذين قابلناهم من أتباع نموذج أجمر يؤمنون إيمانا عميقا بموقفهم لكن يبدو أنهم يتخذون موقف الدفاع، لا بسبب تعرضهم للهجوم من المسلمين الأكثر تشددا - خصوصا بعض المجموعات منأتباع نموذج ديوباند - بل نتيجة صعوبة البقاء في عصر العولمة وجعل أصواتهم مسموعة. وبدا أن أتباع نموذج عليكره في حالة من التشوش والتشتت فضلا على استخـدام تعابير تدل على عدم اليقين بالمستقبل. في حين تسم الثقة والجرأة والإحساس بالانتصار أتباع نموذج ديوباند. فالتاريخ تحول أخيرا لمصلحتهم.

إذن، ليـس من المفاجئ أن يستخلص أعضـاء فريقي سلسلة واسعة من ردود الأفعال في المجتمعـات المحليـة التـي قمنا بزيارتهـا خلال رحلتنا. فقـد كان أفرادهـا يراقبوننا مثلمـا نراقبهـم. لقـد استخدمت بعضا من هذه المـادة في النص. إذ وفـرت ردود أفعال المسلمين على مرافقتينا هيلي وهاديا، تغايرا معبرا، وهذا ما أتاح لنا أن نراقب على أرض الواقـع مباشرة كيف اشتغلت ردود الأفعال هذه ضمن النمـاذج الإسلامية الثلاثة ونعلق علـى أصالتهـا واكتمالها. فقد مثلت هيلـي، بشعرها الأشقر وعينيهـا الزرقاوين، الأنثى الأمريكيـة النمطية المتحدرة من أسلاف أوروبيين. في حين رمزت هاديا بعينيها البنيتين وبشرتها السمـراء، نوعا جديدا من الأمريكيين العرب من آباء مسلمين، فضلا على أنها محجبة. استقبل الروحانيون والمتصوفة من أتباع نموذج أجمر هيلي بكرم الضيافة ذاته الذي امتد ليشمل الفريق برمته، في حين أن المتشددين من أتباع نموذج ديوباند تظاهروا دومابأنها غير موجودة وتجاهلوها كلية، ولم تتلق الترحيب بلباقة لا تشوبها شائبة إلا من

نسائهـم. وترك الأمر إلى الشباب المسلمين، في استنبـول أو عمان، لرؤيتها كأنثى نمطية غريبـة – يمكن إغراؤها. وموقفهم تجاه هيلي لخص بإتقان تقريبا مأزق نموذج عليكره. فقـد تخلى أتباعه عن السلـوك الإسلامي التقليدي ولم يستطيعوا عبور المرحلة الانتقالية نحـو السلـوك الاجتماعي والتعليم والثقافـة الغربية، ولذلك نزعـوا إلى قراءة العلامات والإشـارات والحـالات بطريقة خاطئة. ومن ثم انتهى بهم المطـاف في وضع لا ينتمي إلى الماضي ولا إلى الحاضر.

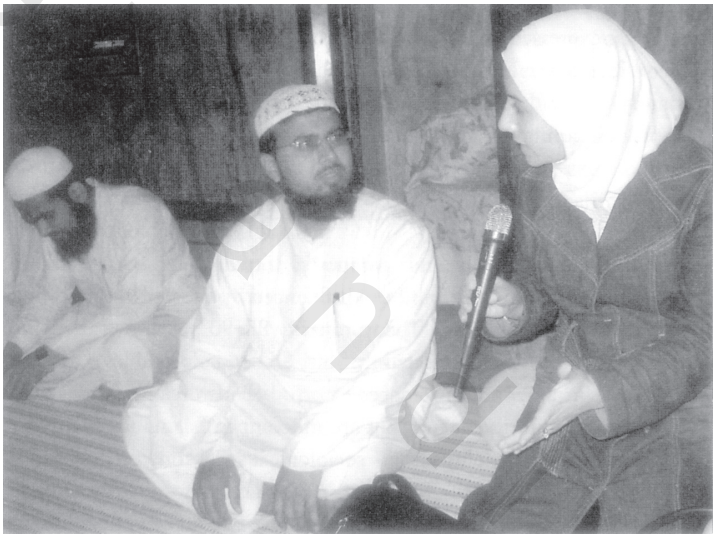

في إحـدى المدارس الدينية في ديوبانـد، هاديا مبارك تجيب عن أسئلـة متعلقة بتجاربها بوصفهـا مسلمة أمريكية. تكررت الأسئلة عن المسلمين الأمريكيين والصورة السلبية للإسلام في الغرب مرارا خلال الرحلة.

تحسنـت الأمور بسرعة فيما يتعلق بهيلي حين تعلمت كيف تقرأ الإشارات الدلالية في المجتمعـات الإسلامية، حتى في تحية النـاس. إذ لا تحبذ المصافحة بين الرجل والمرأة في المجتمع التقليـدي، نظرا لانتهاكها المعايير الاجتماعية الراسخة. فمصافحة شاب مسلم فتاة أمريكية يمكن أن تعني أكثر من مجرد تحية اجتماعية. الملابس لها أهميتها الدلالية أيضـا. وحين بدأت هيلي ترتدي ملابس أكثر تقليديـة، مثل التنانير الطويلة، والقمصان الفضفاضـة، وغطـاء الرأس بين الحين والآخـر، خصوصا في دور العبـادة، وجدت أنها أصبحت تلقى بعض الترحيب من الرجال. في كراتشي، رفضت دخول مبنى ضريح محمد

علـي جناح حتـى وجدت غطاء للرأس لإظهار احترامها لذكـرى الأب المؤسس لباكستان، وحـين ذكـرتُ ذلك أمام عدد كبـير من الحضور في مناسبة عامـة في إسلام أباد بعد أن تحدثـت هـي أمامهم، بدا عليهـم التأثر. في اليـوم التالي أعربت الصحافـة المحلية عن تقديرهـا للفتـة الاحترام هذه. وفي نهاية يوم طويل في جامعة ديوباند في الهند، عبر أحد كبـار أعضاء الهيئـة التدريسية الـذي كان يرافقنا عن شكره لزيارتنـا في صف محتشد بالطلاب الملتحين. وبلغ تأثـره بمسلك واحتشام هيلي حد مخاطبتها بـ"هيلي الطاهرة". وهكذا، في خضم المشاعر المعادية لأمريكا في المنطقة، استطاعت طالبة اكتساب أصدقاء للولايات المتحدة عبر إظهار بعض الحساسية الثقافية.

هاديـا أمرها مختلف. فقد قبلها المتصوفة في أجمر ورحب وأعجب بها أتباع مدرسة ديوباند. وكانت برأي هؤلاء نموذجا يدعو للفخر ويمثل الإسلام في الولايات المتحدة وعبروا عن رضاهم على ذلك. وحتى المدارس الدينية المتشددة، التي لا يدخلها إلا الذكور عادة، دعتهـا إلى التحدث أمـام تجمعات ضمت عدة مئات من الطلاب، الذين أثارهم ما قالته بالعربية. لكن في استنبول أو عليكره ذاتها، واجهتها مشكلات مع أتباع نموذج عليكره. بل حاولـوا في استنبول منعها من دخول حـرم إحدى الجامعات بسبب حجابها. وفي عليكره، هاجمهـا عدد من الطلاب الغاضبين بسيل من الأسئلـة العدائية عن السياسة الخارجية الأمريكيـة. وفي حين لم تصدر عنهـم أي تلميحات جنسية غير لائقـة، لكنهم عبروا عن غضـب شديد عنـد التعامل معها. ربما عـدوا حجابها رمزا لورطتهـم: فقد اتخذوا على الدوام موقفا دفاعيا لأن الإسلام تعرض للانتقاد بوصفه دينا متخلفا ورجعيا.

الفوارق بين الشيعة والسنة

وما يضيف إلى هذا التعقيد أن الإسلام مكون من طائفتين رئيسيتين، السنة والشيعة، تأثر كل منهما بوجهات نظر النماذج الثلاثة تجاه العالم بطرق متباينة. تقدر نسبة السنة بـ 85. 90% مـن مسلمي العالم، والنسبـة الباقية من الشيعة. علـى المستوى اللاهوتي/العقدي، ليس ثمة فوارق فعلية بين الطائفتين – كلتاهما تؤمن بالله والنبي والقرآن، والقيم المتأصلة في الإسلام. لكن هناك اختلافات مميزة على المستويين السياسي والاجتماعي، تعود إلى وفاة النبي عام 632م.

يتأصل معتقد وهوية الشيعة في السؤال المتعلق بمن يخلف رسول الله ويحمل لقب أول خليفة أو قائد الأمة الإسلامية التي شيد أركانها صلى الله عليه وسلم. يعتقد الشيعة أن عليا، صهر الرسول وابن عمه، هو الأحق بالخلافة. لم يكن علي شخصية استثنائية وفذة فقط - فقيه حكيم ومحارب جرئ - بل أول فتى يعلن إسلامه. ولم يصبح علي خليفة إلا بعد أبي بكر وعمر وعثمان - وكلهم من الصحابة الأجلاء والشخصيات التي تحظى بالتقدير في الإسلام السني. علي أيضا هو والد الحسين، أحد أهم رموز الشيعة، الذي استشهد في كربلاء (في العراق)، وكان لاستشهاده أهمية بالغة وتبعات مؤثرة في تاريخ الشيعة، حيث يحج ملايين الشيعة إلى كربلاء كل عام.

هذا الاختلاف الأولي على الخلافة تطور إلى انقسام مذهبي في خلافة عمر، حين اعتنقت الإمبراطورية الفارسية الإسلام آنذاك. وجلب الفرس معهم - كما فعلت شعوب الأمصار الأخرى في العالم الإسلامي -العديد من عاداتهم وتقاليدهم وإحساسهم بالاعتزاز القومي. فقد تلقوا هزيمة نكراء على أيدي العرب، الذين كانوا يزدرونهم بوصفهم قبائل من المتخلفين الذين يفتقرون إلى الثقافة والفكر والذكاء. وبدا من المنطقي لهم الارتباط بعلي في دينهم الجديد لأن هذه الرابطة مكنتهم من الاحتفاظ بشعور بالتفوق، في حين يعدون أنفسهم أقلية مضطهدة ضمن عالم الإسلام الذي يهيمن عليه السنة. وبمرور الزمن، تسربت الاختلافات والفوارق الاجتماعية إلى الطاعات التي أثرت في الشعائر الدينية. الاحترام والإجلال والمكانة التي يتمتع بها رجال الدين الشيعة في المجتمع لا يتمتع بها رجال الدين في الإسلام السني، حيث يجب على علماء الدين منافسة الزعماء التقليديين وغيرهم في إسماع كلمتهم. فضلا على ذلك، يربط الشيعة أنفسهم بعلي ارتباطا وثيقا إلى حد أن السنة كثيرا ما يتهمونهم بإجلال علي أكثر من النبي ذاته. والمفارقة أن السنة والشيعة معا يجلون ويوقرون ويستمدون إلهامهم من الشخصيات التاريخية نفسها: النبي، وابنته فاطمة، وزوجها علي، وابنهما الحسين.

يمثل عمر بن الخطاب، الخليفة الراشدي الثاني، نقطة الخلاف المركزية بين أتباع المذهبين. إذ يعده السنة قدوة ومثلا أعلى، مثلما أظهرت الإجابات على الاستبيانات التي قدمناها، في حين تختلط مشاعر الشيعة تجاهه: فهو واحد من الذين اغتصبوا حق علي

في الخلافة، لكنه الحاكم الذي أرسل حملة ناجحة لفتح بلاد فارس وإدخال الفرس في الإسلام. في كثير من الأحيان، يهمس الشيوخ من أهل السنة زاعمين إن الشيعي في سالف الأيام حين كان يسدد رميته لصيد طريدة، يدعو في سره أن يصيب السهم قلب عمر.

مثل الإمام آية الله الخميني، الذي قاد الثورة الإسلامية في إيران وأسقط الشاه، كل ما يعارض الحداثة الغربية برأي الغربيين وحتى الحداثيين بين الشيعة الذين اتبعوا نسختهم الخاصة من نموذج عليكره. لكن الخميني مد يده إلى السنة، مقدما الحجة على عدم وجود خلاف لاهوتي/ عقدي بين المذهبين. أما شعاره فكان: لا شرق ولا غرب، لكن شغلته السياسة في إيران فيما بعد، ثم خاضت بلاده حربا دموية طويلة مع العراق، وفقدت الثورة زخمها.

كثيرا ما أطلق العداء بين السنة والشيعة شرارة أعمال العنف في المناطق التي يكون فيها الشيعة أقلية، مثل السعودية وباكستان. في إيران، من ناحية أخرى، تعرضت الأقليات السنية تاريخيا، خصوصا الجماعات القبلية مثل الكرد على الحدود الغربية والبلوش على الحدود الشرقية، للاضطهاد والقمع. ومثلما أشار الخميني، ليس لهذا الاحتكاك بين السنة والشيعة سوى علاقة واهية بأي اختلافات مهمة أو لاهوتية/عقدية يتعذر حلها. ولكن اللوم يقع على العوامل الاثنية والاجتماعية والنفسية.

في الوقت الراهن، تتعرض الروابط والعلاقات بين الشيعة والسنة إلى الانهيار والانحدار إلى مستوى العنف المذهبي في العراق الذي يهيمن عليه الشيعة، وباكستان التي يهيمن عليها السنة، ولبنان حيث يتعادل المذهبان في القوة. الأصدقاء والجيران يلحقون أذى جسيما بعضهم ببعض، وهم عارفون بنقاط ضعفهم وحساسياتهم المتبادلة. فالدوافع اللاعقلانية المتجذرة والظلامية التي يشجعها الحقد والغل تجد التعبير عنها في أقسى الأعمال الوحشية شرا وانتقاما. أما الطبيعة الحادة والمنتشرة للعنف الحالي داخل الإسلام فتؤكد وجود خطأ ما في الوضع الإنساني اليوم.

على الصعيد الاجتماعي، تظهر المجتمعات الشيعية العديد من النزعات والميول المميزة لنموذج أجمر، لأن المكون الصوفي في النموذج ساهم مساهمة كبيرة في إثراء الثقافة الشيعية. في الوقت ذاته، يبدو علماء الدين الشيعة الموقنون بأنهم المدافعون

عـن الإسـلام أكثر قربا إلى نموذج ديوباند، لكن حتى وقت قريـب بدت استجابة الشيعة للحداثـة أقرب إلى نمـوذج عليكره. لنتذكـر أن بلاد فارس (إيـران)، معقل الشيعة، لم تخضـع للاستعمـار الغربي - ولم تظهر فيها جامعة عليكـره، ولا أمثال السير سيد أحمد خـان أو محمد إقبال أو محمد علي جناح. وفي نظـر الشيعة، تعني الحداثة رفض المعادل الشيعي لنموذجي أجمر وديوباند - بمعنى أي صيغة من صيغ الدين التقليدي - والافتتان الأعمى بالغرب في آن معا. ومنذ الخمسينيات وحتى إسقاط نظامه، جسد شاه إيران هذا الاعتناق للنموذج الغربي ورفض القيم التقليدية، ولذلك اغترب عن شعبه واستعداه. لكن ظهـر في الإسلام الشيعي عدد من الحداثيـين، مثل عالم الاجتماع الإيراني علي شريعتي الذي تخرج في فرنسا. لكن لم يصل أي منهم إلى السلطة. واليوم، يهيمن المعادل لنموذج ديوبانـد علـى المسرح في إيران. ويجـب رؤية دافع إيران إلى بنـاء برنامج نووي يمكن أن يستفـز أزمة عالمية جديدة في سياق شعور الشيعة بالاضطهـاد وموقع شيعة إيران ضمن عقيدة الإسلام[39].

عند مفترق الطرق

مـا يكمـن في صميم ديانات العـالم الكبرى مفقود في عالم اليـوم: الإحساس بالعدل والإحسـان والعلم. فقد اكتسح المد العارم للعولمة العالم بقوته الاقتصادية والمالية، ليهيج الغضب والجشع والجهل. وفي مثل هذه البيئة، أصبحت مشاعر التعاطف والتراحم وفهم الآخـر غـير ذات صلة - ولم يعـد الإنسان والعلاقات الإنسانية أمـرا مهما. تفاقمت هذه السمـة المميـزة للعولمة منذ الحادي عشر مـن سبتمبر. وبرر أساتـذة القانونالذين يجب أن يعرفـوا أكـثر من غيرهم - استخدام التعذيب في أحط أشكاله في معسكرات الاعتقال السريـة[40]. وغـدت الحـرب الأمريكيـة على الإرهـاب رمـزا مشوها للعولمـة ومرتبطا بالتعذيب وتعليق العمل بحقوق الإنسان مع ملايين الفقراء والمحرومين والمتعاطفين معهم. وهـذا يتحـدى افتراض المفكرين الغربيين السـاذج فكريا والمتعصب عرقيـا وثقافيا بأن العولمـة تـروج وتشجع "التسامح العالمي"، وأن هذا التسامـح سمة مميزة للثقافة الغربية التي يمكن الآن نقلها إلى بقية دول العالم[41]. فالجنس البشري بلغ حد فقدان ما يجعله بشريـا وإنسانيا: التعاطف والتراحم والإحسان. وهو بحاجة إلى إعادة اكتشاف التراحم

والإحسان لـكل وحدة من وحداته الاجتماعية، بدءا بالأقارب وانتهاء بالمجتمعات الكبرى التي تتقاسم العيش على هذا الكوكب.

لذلـك هناك حاجة إلى تشجيع الحكومات على إجراء حوار جدي وبذل الجهد الكافي لفهـم حتى أولئك الذيـن يعارضونها بشدة، بدلا من عزلهـم وإقصائهم واستعدائهم. إن رفض نموذج ديوباند في الشرق الأوسط مثلا لا يؤدي إلى مزيد من تطرف أنصاره وتشدد أتباعـه فقط، بـل إلى توسيع قاعدته في المجتمع في نهاية المطـاف. لقد فشل تكتيك رفض الاعـتراف أو التحدث مع أنصار ومؤيـدي نموذج ديوباند فشلا ذريعا. وتحتاج الحكومات أيضـا إلى المساعـدة علـى إحياء نموذجـي أجمر وعليكـره المهمشين في الوقـت الراهن. والتعاطـف مع المجتمعـات الأخرى وفهمها همـا السبيل الوحيد لحـل المشكلات المحفوفة بالخطـر التي تواجه الحضارة الآن. ففي المجتمع الإسلامـي وحده تتفاقم هذه المشكلات وتتضاعف: الأمية، والافتقار إلى الرعاية الصحية، والفقر، والشكاوى والمخاوف السياسية المشروعة للكشميريين والفلسطينيـين ومسلمي البلقان والشيشان. وما يضيف تعقيدا إلى هـذا الوضع المعقد أن المسلمين يكونون مجتمعـا تقليديا لكن عالميا ملتزما دينه. ومستقبل الجنس البشري يعتمد على الحوار العالمي مع المسلمين وغيرهم من الشعوب.

هـذا يعني أداء مهمة لم تؤد من قبل في التاريخ البشري: التشارك في تطبيق القواعد الأخلاقيـة الشائعة والمتضمنـة في جميع الديانات والمنظومـات القانونية الكبرى. الوقت عامل جوهري هنا. فالسموم تنتشر بسرعة بحيث يستحيل العثور على ترياق في المستقبل إذا لم يتخذ فعل إجرائي علاجي فوري.

يمثـل هذا الكتاب خطوة أولى حاسمة في ذلك الاتجاه: فهو يشرح السبب الذي يجعل تحديـد مشكلة علاقات الإسلام بالغرب ممارسة غـير روتينية ذات طبيعة أكاديمية، بل أمـرا حاسم الأهمية لعملية الفهـم الحقيقي، لأن الافتراضات المغلوطة سوف تؤدي حتما إلى نتائج خاطئة وناقصة. إن وسم الإسلام بنعوت وصفات جديدة ومغالية مثل :الفاشية الإسلاميـة"، ربما يوجد مزيدا مـن المشكلات التي يمكن تخيلها. لذلك قمنا بعملية سبر وتمحيص عميقة في كيفية تعريف وتحديد الإسلام في عصرنا، ومن يقوم بمهمة التعريف والتحديد، ولماذا. واقترحنا طرقا وأساليب بديلة لمعاينة المشكلات ذاتها.

يقـترح الكتـاب أيضا كيفية إجراء الحـوار وتحقيق الفهم بـين المجتمعات عبر أمثلة عمليـة وميدانيـة. ولا يكتفي بإثـارة أسئلة نظريـة فقط، بل يعرض حـالات فعلية تصف أشخاصـا حقيقيين من لحم ودم. من أسواق الشرق الأوسط، إلى مساجد ومعابد جنوب آسيا، إلى جامعات وكليات الشرق الأقصى سمعنا أصواتا - لمسلمين وغير مسلمين - نادرا مـا يسمعها أحد، وأحيانـا لا تسمع على الإطلاق. والكتاب يردد صدى أصواتهم المخلصة ورسائل الأمل التي بعثوا بها.

لكن لسوء الحظ، يبدو أن المفكرين وصناع السياسة الأمريكيين على درجة من التشبث العنيـد بفكـرة الطاقة السلبيـة للإسلام تماثل فكـرة المسلمين عن الثقافـة والسياسات الأمريكية. ولا يظهر أي من الطرفين الحكمة والشجاعة والالتزام الضروري لجعل العالم مكانا أفضل - وأكثر أمانا وأمنا. فهذا يتطلب تغييرا في الفكر والذهن، والأهم تغييرا في المشاعر والنيات والمقاصد.

obeikandl.com